

**أبو القاسم الشابي**  
**شاعر الشباب والحرية**

عنوان الكتاب : أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحريّة

المؤلف : طه عبد الباقي سرور 1958

تقديم : أ.د. حسين جمعة

اختيار : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم 77/ تشرين الأول

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

---

---

البريد الإلكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu.sy>

---

---

# أبو القاسم الشابي

## شاعر الشباب والحرية

طه عبد الباقي سرور  
1958

تقديم: أ.د. حسين جمعة  
اختيار: مالك صقور



## أبو القاسم الشابي توهج الإبداع وخلوده

د. حسين جمعة

### مقدمة:

يرى عدد غير قليل من الباحثين أن التجارب الفكرية والثقافية والإبداعية لا تتساوى، ولا تتطابق؛ إذ لكل تجربة خصائصها التي تميزها من غيرها سواء كانت تجربة فردية أم جماعية؛ أدبية ونقدية؛ أم فكرية واجتماعية... وأي تجربة لا تحمل مشروعيتها من طبيعتها ووظيفتها وأهدافها هي تجربة فاقدة للبقاء. وكذا يقال في التجربة الإبداعية التي تفقد عنصر التوازن والتكامل في المزاوجة بين الانفعال والعقل؛ فإذا طغى أحدهما على الآخر أصيبت التجربة بأدواء وعلل شتى... وسيوجه إليها النقد واصفاً إياها بالقصور أو العجز أو... ومن ثمّ كنت أؤمن بأن تجربة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد

فريدة في اكتمال خصائصها وتفرد ما جعلها خالدة في  
الذاكرة على الرغم من أنه لم يعيش من الزمن إلا ستة  
وعشرين عاماً، وهو ما عبرت عنه أخته الخرنق في قولها<sup>(1)</sup>:

عددنا له خمساً وعشرين حجّة

فلما توفّاها استوى سيّداً ضخماً

فُجعنا به لما انتظرنا إيا به

على خير حالٍ لا وليداً ولا قحماً

ويعتقد كثير من الناس أن هذا الشاعر الشاب كان  
نسيج وحده في جيل الشباب، حين هيا إبداعه لوعي عالٍ  
بفلسفة الوجود الموضوعي وجعل الإنسان في المرتبة العليا منه إذ  
سخر كل ما في الحياة لصالحه<sup>(2)</sup>... ولكنني حين اطلعت على  
تجربة الشاعر المعاصر أبي القاسم الشابي الذي يماثله في  
العمر - وقد عاش خمّساً وعشرين سنة - وجدته نظيراً له أو  
ربما تَغَلَّبَ عليه، إذ ترك وراءه إبداعاً متوهجاً بالدفاع عن

---

(1) ديوان الخرنق 30 الحجّة: السنة. توفّاها: استكملها. وأثنى القدماء  
على طرفة فقالوا: " إن أشعر الناس ابن العشرين".

(2) انظر ديوان طرفة بن العبد 27 - 33 و 50 - 65 و 87 - 88 و 137  
و 199.

المظلومين المقهورين ولا سيما حين صار صوت الشباب الثائر على الفقر والقهر... ترك وراءه إبداعاً يمتلك من النفاذ إلى النفس ما يجعله في صف الشعراء العظام من شعراء الدنيا... لقد أيقنت بأن التاريخ قادر على إنجاب المبدعين الذين يحققون للأجيال الشابة روح الطموح والخلود، على الرغم من أن عدداً منهم لم يُعمروا في الدنيا إلا سنوات قليلة كالشابي؛ مثبتاً أن إبداعه إنما هو نتاج ثماني سنوات أو عشر على الأكثر ما يعني أنه صاحب عبقرية فذة، أي إنه نظمته بين الخامسة عشرة من عمره والخامسة والعشرين التي حدثت فيها الوفاة على الأرجح..

وهذا كله يفيد بأن تجربته الإبداعية نشأت في معركة بناء الذات وحييات الأمل التي كان يرقبها عن كثب؛ .. وبناء على ذلك فإن جدة التجربة وتميزها لا تقاس بعدد السنين التي يعيشها المبدع وإنما تقاس ببنيته الراقية شكلاً ومضموناً، وبما ترسيه في المشاعر والذاكرة من تجليات وجماليات تنبثق من هذه البنية. وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام شيء من سيرة أبي القاسم الشابي..

## 1 - شيء من سيرة الشاعر: (1)

لا مرء لدينا في أن البيئة المواتية يمكنها أن تخلق المبدع المتميز إذا كان يملك الموهبة والحساسية المرهفة، والذكاء الفطري المتوقد... والتجربة المثقلة بالمعاناة على الصعيد الذاتي والاجتماعي والثقافي، فضلاً عن أشكال البواعث الأخرى التي تقدم للمبدع ما ينتفع به؛ ويستلهمه؛ ويوظفه في تجربته الإبداعية<sup>(2)</sup>.

وهذا ما توافر لأبي القاسم الشابي ابن الشيخ محمد الشابي المولود يوم الأربعاء (1909/2/24م / 3 - صفر 1327هـ) بقرية (الشابية) من بلدة (توزر) جنوب مدينة تونس بما يزيد على أربع مئة كيلو متر وإليها نُسب، هو وأبوه... وكان أبوه محمد الشابي رجلاً تقياً؛ وقاضياً فاضلاً منذ رجوع من مصر بعد إجازة الأزهر له في الشريعة في (1910/3/22م) حتى وفاته (1929م)... وهو من تتلمذ على يد الشيخ (محمد عبده) المتوفى سنة (1905م)... ولما مات الأب تألم الابن ألماً شديداً، ورثاه في غير ما قصيدة من ديوانه<sup>(3)</sup> ومن رثائه فيه:<sup>(1)</sup>

(1) انظر مقدمة ديوان أبي القاسم الشابي 9 - 22 والمداد الحي 7 - 20.

(2) انظر كتابنا (إبداع ونقد - بواعث الإبداع - ص 26، و 36 - 48).

(3) انظر ديوان أبي القاسم الشابي 12 و 102 و 171 - 172 و 184 - 185.



يا موت قد مَزَّقْتَ صدري وقصمت بالأرزاء ظهري  
ورميتني من حالي وسخرت مني أيُّ سُخْرٍ  
فلبثتُ مرصوص الفؤاد أجرُ أجنحتي بذعر  
وفجعتني فيمن أحبُّ ومن إليه أبث سري  
وأعدُّه فجري الجميل إذا ادلهمَّ عليَّ دهري

ويشيع في هذه القصيدة روح القلق في الوقت الذي تؤكد  
صدق الإحساس، والشجن العالي وفق ما يدل عليه تكرار  
بعض الألفاظ كما عهدناه في نهج قصيدة الرثاء التي تجنح إلى  
موضوع البكاء والندب؛ لتستفز الشاعر بنأجيح عاطفتها  
اللاهبة وإن لم تتسخ التجارب الرثائية القديمة<sup>(2)</sup>... وهي  
كذلك تدل على شدة تأثره وبخاصة حين اتبع طريق القدماء  
وصور الدهر بأنه جمع مصائبه ورماه بها. وحينما ركز ألفاظه  
في صميم المعجم الرثائي كان يحاول تفريغ ما تركه فقد أبيه  
في نفسه؛ ليعيد التوازن إلى ذاته المتهالكة كما تؤكد  
الآبيات في كل صورة عرضت لها...

---

(1) المصدر السابق 106 - 107.

(2) انظر كتابنا (الرثاء في الجاهلية والإسلام) فقد فصل في ذلك.

وأياً ما يكن الوجد النفسي فإنه يؤكد لنا تأمله الواعي في سلطة الزمن القاهر في مرحلة تاريخية من حياة الشبابي... ولكنها سلطة لم تجعله يُفَرِّط بمتعة الكلام الذي كثف صورته بقدره عالية توازي كثافة القتامة، وعظمة الاحتمال والصبر اللذين خبرهما في علاقته مع المرض الذي لازمه وأصابه بنوبات شتى كما يعترف في إحدى رسائله: "أما كلمة (قبر الفولاذ) التي راسلك بها الأخ البشروش فقد كتبتها إثر ثورة نفسية عصفت في نفسي ومن حولي وأنت تعلم أنني رجل نوبات"<sup>(1)</sup>... فالنوبات لديه كثيرة؛ نوبة من الأدباء؛ وأحلامهم؛ فضلاً عن نوباته في وطنه... وكل نوبة تولد الإبداع المناسب لها بما تثير في النفس من آلام؛ والألم سبيل الابتكار في كثير من المجالات... وإني لأرى أن الألم الذي لاحق الشبابي في غير ما ميّدان على الصعيدين الذاتي والموضوعي كان وراء الريشة الفنية المرهفة التي رسم فيها مشاهدته الشعرية....

وكان أبو القاسم الولد البكر، وله أخوان (محمد الأمين) المولود في (قابس) عام (1917م)... وتلقى علومه المعاصرة في مدارس تونس وأتقن لغاتٍ أجنبية عدة أبرزها الفرنسية،

---

(1) انظر ديوان أبي القاسم 266.

وصار أول وزير للتعليم في الوزارة الدستورية الأولى (1956 - 1958م)...

أما أخوه الثاني (عبد الحميد) فهو غير معروف.. وكان أبو القاسم يتنقل حيث يكون أبوه في البلاد التونسية حتى استقر بتونس العاصمة إثر دخوله جامع الزيتونة يوم (11/10/1920م) مستكماً مراحل تعليمه، وفيه دخل مدرسة الحقوق (1927م)... وكان في أيام العطل يتجه إلى مرافقة أبيه حيث هو... وهذا وفر له سبباً آخر لتعميق التجربة الفكرية والإبداعية، والقدرة على التأثير؛ وفسحة الاطلاع والقراءة ما زاد ثقته بنفسه وشجعه على أن يلقي محاضرة في القاعة الخلدونية بتونس بعنوان (الخيال الشعري عند العرب) في غُرّة (شباط / فيفري 1929م)؛ صارت عدة غير قليل من الدارسين ومرجعهم<sup>(1)</sup>...

ولم يكن يدري هذا الشاب الذي يتكامل وعيه ومعارفه يوماً إثر يوم أن مرض (القلاب)<sup>(2)</sup> الذي هاجم قلبه شرع يتغلغل

---

(1) نشرت في كتاب (دراسات عن الشابي) - أبو القاسم محمد كرو -

دار المغرب العربي - تونس - ط1 - 1966م.

(2) ويتلخص في عدم كفاية الدوران الدموي نتيجة ضيق الأذنين القلبي...

فيه؛ ليزيده انتفاخاً بينما يصير جسمه ضعيفاً... وحين سبب المرض كل هذه العوارض بدأت مشاعره تتوقد، وموهبته تتضح - ثم ازداد رهافة حين أحبَّ صبيةً في مقتبل العمر تضح بالحيوية وتلاعبها الحقول الريفية بجمالها وبراعتها... ولم يلبث أن أصيب بموتها لغير أوانها فازداد ألماً وبكاها بكاءً مرّاً<sup>(1)</sup>. لقد شق عليه فقده لأبيه ووفاة مَنْ أحب، وما أصابه من مرض القلب الذي أخبره به الأطباء... فصرخ قائلاً: "آه يا قلبي!! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسي التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية".

كل من يتناول سيرة الشابي لا يمكنه التغافل عن زواجه تحقيقاً لرغبة أبيه؛ وكان قد تزوج امرأة فاضلة صبرت على مرضه، وأدوائه، وأنجبت له ولدين<sup>(2)</sup>... وكذلك صبرت على بعض تصرفاته التي لا تليق بها وبصلاحها... ولعل إحساسه بالخطر على حياته دفعه إلى كتابة مذكراته منذ مطلع (كانون الثاني/جينفري 1930م) ثم أخذ في صيف (1933م)<sup>(3)</sup> يصنّف ديوانه الشعري، ويعزل منه الكثير من القصائد التي

---

(1) انظر ديوان أبي القاسم 19 و 31 و 38 و 41.

(2) انظر ديوان أبي القاسم 13 - 14.

(3) انظر ديوان أبي القاسم 15.

كان نشرها من قبل وكتبها بخط يده... ثم أضافها جامع الديوان من بعد إلى الطبعة الجديدة له<sup>(1)</sup>. ولم تكن الزيارات المستمرة للأطباء برفقة أخيه (محمد الأمين) لتمنع تحول الداء القلبي إلى داء مركب نتيجة جفاف الهواء شمال شرق مدينة تونس حيث كان يقطن؛ إذ شرع التداخل بين مرض القلب ومرض السل يزيد في معاناته؛ فألزمه دخول المستشفى الطلياني بتونس، مستشفى (الحبيب تامر) في (1934/10/3م) ولم يمكث فيه إلا ستة أيام ثم فارق الحياة في الساعة الرابعة من صباح الاثنين (1934/10/9م) الموافق (1/ رجب/ 1353هـ)، ثم نقل جثمانه إلى توزر ودفن بها. ويبدو لي أن مرضه بالقلب قد زاده حدة ذكاء ورهافة شعور؛ وعبقرية إبداع؛ وكان في أن معاً مصدر إلهام في عدد من الموضوعات كما تدل عليه قصيدته (أكثر يا قلبي) ومنها:<sup>(2)</sup>

يا قلبي السدامي؛ إلام الوجوم؟

يكفيك، إن الحُزْنَ فظُّ غشومٌ

---

(1) انظر (المداد الحي؛ الآثار الشعرية والنثرية...).

(2) ديوان أبي القاسم الشابي 146.

هذي كؤوسي مُرّة كالردى  
ما ملؤها إلا عصيرُ الهموم  
وذاك نايبى صامت واجم  
يُصغي إلى صوت الغرام القديم  
يا قلبي الباكي إلامّ البكا؟  
ما في فضاء الكون شيءٌ يدوم  
فانشرب غبار الحزن فوق الدجى  
واسمع إلى صوت الشباب الرخيم  
فالشاعر يريد لقلبه المكلوم ألا يسقط في وهدة الحزن  
والآلام وإنما عليه أن يتحمل المكاره والمصائب لأن الفرح أعظم  
بناءً وروعة من الهدم الذي يمثله الحزن... ومن ثم يدعو إلى  
الإقبال على الحياة والتغني بها على حساب الموت؛ ويفضل  
الشباب الغض ومضاءه وينتصر له على الشيخوخة المحمولة  
على الغمّ والهمّ... فهو يقدم بهذه المقابلة صورة جدلية لحياة  
قائمة على البقاء والبناء؛ ولموت قائم على الهدم والفناء؛ وهو ما  
لم نجده عند كثير من الشعراء قبله...

فلا غرابة بعد هذا كله وبعد ما قدّمه لنا شعره أن تؤلف لجنة خاصة لإقامة ضريح على قبره في احتفال عامر يوم الجمعة (1946م)<sup>(1)</sup> الموافق (16 - جمادى الثانية 1365هـ).

## 2 - خصائص إبداع الشابي:

### أ - ذاتيته هي شعره:

كتب في إحدى مقالاته: "الشعر ما تسمعه وتبصره في ضجّة الريح، وهدير البحار، وفي نسمة الورد الحائرة يدمدم فوقها النحل، ويرفرف حولها الفراش، وفي النغمة المرددة يرسلها الفضاء الفسيح..."<sup>(2)</sup>. وكذلك كتب في إحدى رسائله: "إن الفنان؛ يا صديقي؛ لا ينبغي أن يصغي لغير ذلك الصوت القوي العميق الداوي في أعماق قلبه. أما إذا أصغى إلى الناس وما يقولون، وسار في هاته الدنيا بأقدامهم ورآها بأبصارهم وأصغى إليها بأذانهم فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة"<sup>(3)</sup>.

فالشابي كالطائر يصدح بما تمتلئ به ذاته من طيوب الكلام؛ وأنغام الطبيعة؛ ويرجع إيقاعات الشعر التي تحضر في

---

<sup>(1)</sup> انظر ديوان أبي القاسم 15.

<sup>(2)</sup> انظر ديوان أبي القاسم الشابي 16.

<sup>(3)</sup> ديوان أبي القاسم الشابي 278.

ذاته فطرة وروحاً إبداعاً متميزاً... ويعبر عن ذلك كأنه الناسك في محراب الإبداع ليستغرق الذات والوجود: الأنا والآخر؛ الحياة والموت؛ البقاء والفناء؛ الفرح والحزن... ولم تستطع عظمة المصائب والأوجاع من أن تقدمه للأجيال إلا شاعراً فذاً من نوع خاص.

لهذا تناول عدد من الدارسين والنقاد تجربة الشابي الشعرية؛ وخاضوا غمار البحث في جوانبها المتنوعة؛ وكأني بهم اتفقوا على أنه شاعر ذاتي وجداني امتلاً بحب الحياة والتعبير عنها بشجن متأجج... وهو القائل في قصيدة (شعري) من وزن المجتث، ومنها<sup>(1)</sup>:

شعري نُفأثة صدري إن جاش فيه شعوري  
لولا ما انجاب عني غيم الحياة الخطير  
ولا وجدت اكتئابي ولا وجدت سروري  
به تراني حزيناً أبكي بدمع غزير  
به تراني طروباً أجرُ ذيل حبوري

---

(1) ديوان أبي القاسم الشابي 108 - 109. انجاب: انكشف وزال.  
الخبور: السرور.



فهذا المقطع يوضح أنه شاعر رومانسي في ألفاظه وعباراته وأساليبه وفي تمركزه حول الذات والاندماج في الطبيعة والدعوة إلى العودة إليها<sup>(1)</sup>، على أهمية العناصر الرمزية الأخرى، من دون أن ينفلت من النزوع الإنساني. وكذلك يبرز أن الذات الفردية والذات الشاعرة لا تتفصل عن حضور الآخر... فهو يتسرب إلى كل حنايا تلك الذات ليغوص في أنفاسها مشاركاً إياها عملية الاحتراق والانبثاق المتدفق بالهموم وقضايا الناس... فضمير المتكلم لا ينبت عن ضمير المخاطب والغائب في إقامة جدلية التكامل والتفاعل على صعيد الفن والحياة؛ بوصف الفن موازاة للواقع... أي إن الذات الشخصية للشابي تختزن في ذاكرتها صور البعد الزمني والمكاني لتجري عملية تقاطعات فنية وتعيد إنتاجها في رؤية متجانسة مع الوسط المحيط؛ وقد عبّرت عن الموهبة الشعرية التي يملكها. ولذا قال الدكتور الغدامي: "نظرة الذات لذاتها هي النظرة التي ظل الخطاب الشعري يعززها في كبرياء منقطعة النظير من حيث تواترها وانتظامها وتماسكها كخطاب قارٍ ومرتسخ"<sup>(2)</sup>.

---

(1). انظر ديوان أبي القاسم الشابي 16 - 17.

(2) انظر النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية - ص 169 - 174.

فكل من يدقق في العديد من قصائده يستهويه حضور الذات فيها؛ وتسلمه صورها إلى مفاتيح الروح الوثابة التي تتراقص في صدره... وهذا يعني أن تفاعل الذات مع الوسط المحيط ينبثق من طبيعة التحولات المستمرة فيه لتفرغ في الوجدان أشكالاً من التأمّلات غير المحدودة؛ وتعوضه عن الخسائر التي يُمنى بها في حياته.

ويبدو لي أن الخصوصية الإبداعية ليست في الحوار الشفيف المستند إلى المناجاة والأفكار الفلسفية التي تدعوه إلى أن يقول: إنه يجر الذيل طروباً بأحزانه، ولا إلى الطريقة الحدائية الجذابة في استدعاء بعض صور التراث في صميم التأمل المثير، ولا إلى الصور المبتكرة المستمدة من الواقع أو الخيال وإنما تعود تلك الخصوصية إلى هذه الرؤية الفكرية في صميم الذاتية المندمجة بالحياة، وهي الرؤية التي عرفناها عند طرفة بن العبد من قبل. ويقوي هذا الرأي أنه هو من سمى ديوانه قبل موته بعنوان (أغاني الحياة) وعزل منه ما عزل من شعر؛ كما أشرت إليه قبل قليل...<sup>(1)</sup>

---

<sup>(1)</sup>. انظر المصدر السابق 15.

وأياً ما تكن قيمة الشعر الذي اصطفاه فإنه ما زال يقدم  
ما يراه ويستشعره بذاتية جمالية مثيرة توحى ببنية فنية حدائية  
على صعيد الدلالة بوصفها تفاعلاً تتدمج فيه الذات بالموضوع؛  
ويرتقي إلى عالم تصويري مثير، كما نراه في قصيدة  
(شكوى اليتيم) ومنها<sup>(1)</sup>:

وجئت إلى الغاب أسكب أوجاع  
قلبي نحيباً كلفح اللهب  
نحيباً تدافع في مهجتي  
وسال يرُنُّ بِنَدْبِ القلوب  
فلم يفهم الغاب أشجانه  
وظل يردد ألحانه  
فسرت وناديت: يا أمُّ هَيَّا  
إليّ فقد عدتني الحياة

فالشاعر عاش لعبة الموت والحياة في كل نفس من  
أنفاسه؛ وكان نبض قلبه يتوقد بالقوة الدافعة لمعرفة جلال  
الوجود، وكلما دهمه الأرق والقلق من المرض الذي لازمه

---

<sup>(1)</sup> انظر ديوان أبي القاسم الشابي 115.

وأمسك بحقيقة الموت المرعبة، واستشعر بأن جسده سيسجى  
في تلك المدافن التي ستبتلعه إلى الأبد كما ابتلعت السابقين له  
كانت الطاقة الحيوية القابضة على الحياة تنتشله من حالة  
الأسى والحزن ليغني من جديد لزمن الفرح الذي ينفر من  
الغربة والاعتراب ويعبّر عن همومه وهموم الناس ورغباتهم  
كما يعبر عنه بداية المقطع... كان يختار أن يعيش للحياة  
يستشعر ما يدور في خلد الناس من المحبة والدفء للدفاع عن  
الأرض والوطن (فلم يفهم الغاب...) وكذلك يقول في ختام  
قصيدة (نظرة في الحياة)<sup>(1)</sup>:

ويرقد الليل قَسْراً على مهاد العَفَاءِ  
وللشعوب حياةً حيناً وحيناً فَنَاءِ  
والياس موت ولكن موت يثير الشقاء  
والجدّ للشعب روح توحى إليه الهناء  
فإن تولّت صدّت حياتَه للبلَاءِ

ففي الحياة كثير مما يمكن أن يعاش من أجله، فتراه  
ينتفض كالمارد ليفترس الهواجس المخيفة التي تهاجمه

---

(1) ديوان أبي القاسم 114.

(والأس موت...)؛ وينطلق في التعبير عنها بكل ما تشتمل عليه من صور فنية تجتاز حالة الدفاع عن الذات إلى حالة الهجوم على المعاناة الفردية والاجتماعية، والانتصار على مآسيها.

وكل من يدقق في دلالات شعره وخصائصها يدرك أن المكون الذاتي المبول بالمعاناة الاجتماعية والسياسية كانت أكثر بروزاً من المكونات الأخرى على أهمية عملية التماهي الفنية غير المباشر مع الواقع وصوره القريبة والبعيدة بوصفه يريد إرسال رسالة إلى الناس جميعاً يدعوهم إلى وعي الواقع الذي يعيشون فيه؛ والانتفاض على كل أشكال القهر والاحتلال... فالموهبة - وحدها - لن تستطيع أن تخلق شاعراً بهذا المستوى، أياً كان شيطان الإلهام مالكاً للقدرات الإبداعية، ما يثبت أن الأسلوب الأدبي المؤثر قائم على امتزاج الموهبة بالثقافة والخبرة والمعاناة؛ ووعي المشكلات التي تصدم المبدع فيعبر عنها بلغة واضحة ودقيقة؛ معبرة ومثيرة؛ لغة تصل إلى عقل الجميع، وهذا ما حققه الشابي.

ونكتفي بهذه الشواهد التي تؤيد ما نحن فيه لنمضي نحو موضوعاته فهي - أيضاً - تؤكد رؤيتنا وتضيف عناصر أخرى.

### ب - موضوعات شعره:

تواضع الشعراء على جملة من الموضوعات والأغراض قديماً وحديثاً، وقد عرف شاعرنا عدداً منها بيد أنه راح يبتكر موضوعاته التقليدية في إطار ثورته على ما يراه في واقعه، فضلاً عن أنه مارس تمرده على ما يعيشه مجتمعه من قضايا عدة بأساليب حديثة تستند إلى التوتر الفاعل، والقلق الوجودي جامعاً بين الخيال الوثاب والعاطفة الوجدانية المحمولة على الأسى والحزن؛ والكآبة والقتامة، ومعبراً عن ذلك في صميم حبه للحياة والتمسك بنشواتها... أي إنه كان يواكب الحياة بما تنتجه من ظواهر وحاجات وموضوعات وقصائد جرت في الحكمة والرياء والفخر والغزل... وهو الذي أنف من نظم الشعر تزلفاً للملك أو أمير سواء كان رثاء أم مدحاً وهو القائل: (1)

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير  
بمدح أو رثاء تُهدى لربّ السرير  
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري

(1). انظر ديوان أبي القاسم الشابي 109.

ما الشعر إلا فضاء يرفّ فيه مقالي  
فيما يسرُّ بلادي وما يسرُّ المعالي  
وما يثير شعوري من خافقات خيالي  
وإذا كنا قد أثبتنا شيئاً من رثائه في أبيه فإننا نثبت - هنا  
- مثلاً يعبر عن غزله المملوء بعبق الحياة ووهج الحلم المفتوح  
على صور بديعة؛ وفق ما نقرؤه في قصيدته (صلوات في هيكل  
الحب) ومنها<sup>(1)</sup>:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام  
كاللحن كالصباح الجديد  
كالسماض الضحوك كالليلة القمراء  
كالورد كابتسام الوليد  
يا لها من وداعة وجمال  
وشباب مُنعمٍ أمْلُود

---

<sup>(1)</sup> ديوان أبي القاسم الشابي 79 وقد غنّى مقاطع من هذه القصيدة  
المطرب السعودي (محمد عبده) والأملود: الناعم اللين. والعميد:  
الشديد الحزن...

يا لها من طهارة تبعث التقدير

س في مهجة الشقي العنيد

يا لها رقة تكاد يرف الور

د منها في الصخرة الجلود

فهو في هذه القصيدة الطويلة يذكرنا بالغزل الحسي  
المادي الذي يتصيد الصفات الخارجية للمرأة، ويرسلها في  
صور خيالية مثيرة وجذابة ولكنها كانت تعانق الصفات  
المعنوية، وتفجر طاقات الحيوية الشبابية لديه... إنها صورة  
للفتاة الحلم التي يبحث عنها بوصفها راحة للروح، وطمانينة  
للقلب المعدب. ولا شيء أدل على ذلك من قوله في ختام  
القصيدة:

وحرام عليك أن تهدمي ما

شاده الحسن في الفؤاد العميد

... وكذلك نراه في عدد من القصائد التي تناول فيها  
عدداً من الموضوعات السياسية الاجتماعية والنضالية  
والفلسفية التي عرض بعض النقاد لشيء من أفكارها - كما  
هو الكتاب الذي بين أيدينا - وتغافلوا عن أفكار أخرى



تعرض لها؛ ما جعل الألسن تردها على الدوام كما نراه في  
مطلع قصيدته الذائغة الصيت (إرادة الحياة) ومنها<sup>(1)</sup> :  
إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر  
ولا بد ليلاً أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر  
ومن لم يعانقه شوق الحياة تخر في جوها واندر  
فويل لمن لم تشقه الحياة ومن صفة العدم المنتصر  
كذلك قالت لي الكائنات وحدّثني روحها المستتر

ومما قاله في المقطع الثاني:

ومن لا يحب صعود الجبال  
يُعيشُ أبد الدهر بين الحُفر<sup>(2)</sup>  
فَعَجَّتْ بقلبي دمَاءُ الشَّبَابِ  
وضجّت بصدري رياحُ أحر

(1) ديوان أبي القاسم الشابي 90 - 91 ضمّ النشيد الوطني التونسي

جزءاً من القصيدة؛ وغناها عدد كبير من المنشدين العرب...

(2) روي (ومن يتهيب صعود...) .

## وأطرقْتُ أُصغِي لقصف الرعد

### وعزف الرياح ووقع المطر<sup>(1)</sup>

ومن يتأمل هذين المقطعين من قصيدته الطويلة يدرك أن كل بيت فيهما يحمل من الإدهاش واختراق المؤلف ما ينطبق عليه مقولة نظرية (التلقي) اختراق أفق التوقع. فحين عالج الأحوال الاجتماعية المزرية، ظلماً وقهراً وفقراً أثار في العقل رؤى كثيرة، ولما شاهد بأمر عينه ما يفعله المحتل الفرنسي في بلاده العربية استثارته الاستكانة الخائفة، فراح يحرك النفوس لئلا تسقط في حالة التشاؤم والضعف والهوان والاستسلام... لذلك قال في إحدى رسائله: "إن هاته الثورة التي تعصف في جوانب صدري لا تهدأ ضجتها، ولا يسكت هديرها، ولا يخمد طغيانها العارم المزيد..." وكان علل سبب هذه الثورة بقوله: "نعم يا صديقي فإنني لا أعلق على غيرك... ما أعلقه عليك من إحياء الأدب ورفع اسم تونس؛ تونس العزيزة عالياً بين أسماء الشعوب". ثم قال: "وإنني لعاجز أن أصور إليك الآن ما يصطفق في قلبي من ثورة وسخط وغضب وحيرة وشك

---

<sup>(1)</sup> أطرق: سكت ولم ينبس ببنت شفة. وقع المطر: صوته حين ينزل أو يصطدم بالأرض...

وتساؤل وآلام، ثورة على القدر، وشك في المستقبل وآلام لحظاً  
تونس المنكوس"<sup>(1)</sup>. لقد حاول القفز فوق الواقع الاجتماعي  
والموضوعي مخاطباً الناس أينما كانوا في كل زمان ومكان  
لكي يتمردوا على واقعهم البائس والمزري، رافضاً القبول  
بالذل والخنوع... فهو يرى أن الحل بأيديهم، لا بيد الظالم؛  
ولهذا شرع يقرعهم أشد تقريع إن لم يثوروا... وهذا يذكرنا  
بثورة أبي ذر الغفاري من قبل؛ وكأنه ينطق من جديد بلسانه...  
ثم استطاع الأسلوب الحماسي الخطابى أن يواكب الثورة  
الاجتماعية التي آمن بها، ورسم ملامحها في صميم تدفق  
العواطف الحزينة التي تأكل صدره، وتفري كبده كما نراه  
في قصيدته (إلى طغاة العالم) المستندة إلى ثلاثة مقاطع؛ في  
كل مقطع ثلاثة أبيات تختلف في الروي وتتفق في الوزن؛ وجاء  
في الأول منها:<sup>(2)</sup>

ألا أيها الظالم المستبد

حبيب الظلام عدو الحياة

---

<sup>(1)</sup> انظر ديوان أبي القاسم الشابي 246.

<sup>(2)</sup> ديوان أبي القاسم الشابي 188 وقد غنت بجزء منها المطربة التونسية  
(لطيفة).

سخرت بأنتات شعبي ضعيف  
وكفك مخضوبة من دمأه  
وسررت تشوه سحر الوجود  
وتبذر شوك الأسي في رياه

وهذا الشعر وأمثاله يثبت المقاربة النضالية الوطنية  
الاجتماعية التي يعززها في الزمان والمكان لإشاعة جو الحرية  
والكرامة؛ وإرسال الإشارات القوية لمواجهة الاستعمار  
والاستبداد كيفما كان شكله... ما يجعله شاعر الحرية  
والنضال الوطني الاجتماعي في كل محاولات الخلاقه التي  
ابتعد فيها عن المباشرة... كان يملك في ذاته غيرية عالية في  
الحفاظ على المبادئ الوطنية التي تغلغت في خلايا جسده  
وكونت النسيج الأهم فيه...<sup>(1)</sup>

ومن ثم فإن الشاعر انحاز انحيازاً مطلقاً إلى قضايا  
شعبه، رافضاً أن يبقى مستباحاً ذليلاً أمام الطاغى المستبد؛

---

<sup>(1)</sup> لعل ذلك كله ما دفع الباحث طه عبد الباقي سرور إلى تأليف  
كتابه الذي نضعه بين يدي القارئ.

ومَنْ لا ينتفض عليه عَرَضَ نفسه للهوان والذل ... ولهذا يطلق  
أبياتاً ثلاثة يعنونها بـ(خَلَّه للموت) وهي<sup>(1)</sup>:

كل قلب حمل الخسْف وما

قلُّ من ذل الحياة الأردل

كل شَعْب قد طغت فيه الدما

دون أن يثأر للحق الجلي

خَلَّه للموت يطويه!! فما

حَطُّهُ غير الفناء الأُنْكَل

وهذه الأبيات تستدعي إلى الذاكرة ما قاله المتلمس -

ذات يوم - وتحاكيه في هذا المقام<sup>(2)</sup>:

ولن يقيم على خَسْف يسام به

إلا الأذلان عَيْر الأهل والوتيدُ

---

(1) ديوان أبي القاسم الشابي 145. الخسْف: الذل والقهر. الأردل:

الرديل. طغت: ثارت. الجلي: الواضح. الأُنْكَل: الذي تلحق به

المصائب

(2) ديوان المتلمس 208.

فالتمس حرّض قومه بني ضبيعة على عمرو بن هند الذي  
استبد بهم، وحثهم على الثورة؛ ورفض الذل والخنوع له. ثم إن  
الشاعر تطرق إلى موضوعات فكرية فلسفية تذكرنا بما  
كان بعض القدماء قد تناولوه في حكاية المصير المحتوم  
للإنسان والبحث عن الخلود. فموضوعة الموت شغلت عقل  
الإنسان منذ الأزل؛ وأرست فيه القلق والتوتر، فحاول إيجاد  
الأفكار التي تبعث في نفسه الراحة والطمأنينة... هذا ما كان  
في عهد الحضارات القديمة منذ جلجامش السومري وهذا ما  
نجده في شعر الشابي... بيد أن الشابي اتجه إلى الحياة يغني لها  
اختراقاً نفسياً لحقيقة الموت التي تقفز إلى ذاته<sup>(1)</sup> كما نراه في  
قصيدة (نشيد الجبار)؛ ومنها قوله:<sup>(2)</sup>

سأعيش رغم الداء والأعداء

كالنسر فوق القمة الشمّاء

أرنو إلى الشمس المضيئة هائلاً

بالسحب والأمطار والأنواء

---

(1) انظر ديوان أبي القاسم الشابي 33 - 41 و 50 - 51.

(2) ديوان أبي القاسم الشابي 29.

لا أرمق الظل الكئيب... ولا أرى

ما في قرار الهُوَّة السوداء

ولو لم يكن للشاعر الشابي إلا قصيدته (حديث المقبرة) لكفاه خلوداً؛ وهي قصيدة تستند إلى رؤية فلسفية تناقش في حوار عقلي مثير قضايا الموت والحياة؛ والبقاء والفناء؛ والكمال والخلود في تناص فكري راقٍ مع الآراء التي سبقته، واستلهم أجود ما فيها، وأرسلها بأسلوب دفاقٍ بالعاطفة الجياشة التي تجعله واحداً من رواد الشعر الرومانسي في الأدب العربي... وهي قصيدة طويلة مؤلفة من عدد من المقاطع الموحية الأفكار التي تذكر بما قرأناه في قصيدة إيليا أبو ماضي (الطلاسم) وغيرها<sup>(1)</sup>، ومن (حديث المقبرة) قوله في مطلعها<sup>(2)</sup>:

أتقنى ابتسامات تلك الجفون؟

ويخبو توهج تلك الخدود؟

وتذوي وُرُيداتُ تلك الشفاه؟

وتهوي إلى التُّرب تلك النهود؟

(1) انظر إيليا أبو ماضي 41 - 44 و 649 - 664.

(2) ديوان أبي القاسم الشابي 70 - 75 وانظر فيه قصيدة (إلى الموت)

77 - 75

وقوله في المقطع الأخير:

ولكن إذا ما لبسنا الخلود

ونلنا كمال النفوس البعيد

فهل لا نملّ دوام البقاء

وهل لا نودُّ كمالاً جديداً

وكيف يكونُ هذا الكمال؟

وماذا تُراه؟ وكيف الحدود؟!!

وتتوزع هذه القصيدة في مسارات ورؤى تدل على القيم الفكرية الحاضرة في ذاكرته... وتعزز الوعي بالتحويلات الفعالة التي تترك تأثيراً إيجابياً في الذات والمجتمع. فالقصيدة السابقة ونظائرها من شعر الشابي تتسرب إلى ذاكرة المتلقي وهي مفعمة برحابة الاستجابة لفكرة البحث عن الذات والخلود؛ فتقدم تجلياتها الجمالية في إطار شعرية تنفتح على الكون في دلالاتها، وقد برئت من الشوائب الغثة... وهي وحدها تؤلف سيفراً خاصاً من الرؤى الفكرية، وتحتاج إلى وقفة مطولة تحلل دلالاتها؛ وتوازنها مع نظائرها مما جرى عند الشعراء...



وهذا ينقلنا إلى حديث مركز نتوقف فيه عند عدد من الأساليب التي توجت ممارستها الشعرية التي قدّمت وظائفها في طبيعتها، واستفرغت جهد الشاعر الإبداعي في جملة من الخصائص التي برزت فيها...

### ج - أساليب وخصائص:

أكد شعر الشبابي أنه قيمة فنية غمست حبرها بريشة الفن الأصيل، وحملت رسالته في صميم نبض الحياة المتجددة؛ إذ استشرّف موهبته الخلاق، ووضعها بين يدي الأجيال في مقاطع تعتمد الوحدة الموضوعية، والمستقلة بوحدة الروي، لينتقل بين المقاطع (غالباً) بخفة ورشاقة، من دون أن يشعر المتلقي بتغير الفكرة أو في قصائد قصيرة وطويلة كسستها البرود الملونة والمستمدة من ألوان الطبيعة أشكالاً زاهية وجذابة... ومن ثم انفتحت التجربة الشعرية لديه على جملة من الأنماط الفنية الحداثية التي انتظمت في قوالب الشعر العمودي شكلاً؛ وفارقتها في أغلب المضامين؛ من دون الإنكار بأن بعض الأساليب البلاغية المعروفة لديه تغذت مما ورثه عن الأجداد... فإذا كان حريصاً على مواكبة الحداثة الشعرية والتفاعل معها سواء كانت رومانسية أم رمزية. فإنه لم ينقطع عن تراثه... ولا أعالي إذا قلت: إن تجربة الشبابي تؤكد ذاتها

في حيويتها المتفجرة بتوليد الصور بعضها من بعض، وتكوين العلاقات المتضادة فيما بينها على أساس من التقابل والتناظر تارة؛ والتكرار والتفصيل تارة أخرى<sup>(1)</sup>... وهو ما لمسناه في أبياته القليلة، أو مقطعاته أو قصائده... وكلها طرقت موضوعها طرقةً مباشراً، وتجاغت عن المقدمات التي عرفها القدماء على الرغم من أنه كان واحداً من الشعراء الذين انغمسوا في الطبيعة وغنوا لها...

ومن ثم فإن شعره يستند إلى تعدد اللوحات المشهدية في القصيدة الواحدة ما فرض عليه الاستجابة لتغير الموضوع فغير الروي تبعاً لذلك... وإن ظل الإيقاع يجري على وزن واحد، على الأغلب. وهو ما نراه في قصيدة (مأتم الحب) على سبيل المثال<sup>(2)</sup>.

وكان الشاعر يصوغ ذاته في أنساق إبداعية تمتح كثيراً من فضاءاتها مما وجدناه في التراث الشعري، لتصبح ظاهرة

---

<sup>(1)</sup> انظر تكرار لفظ (يا موت) مثلاً، في قصيدته (يا موت)؛ ديوان أبي القاسم 106 - 108 إذ تكرر ست مرات فضلاً عن ألفاظ وأساليب أخرى...

<sup>(2)</sup> انظر ديوان أبي القاسم الشابي 98 - 99 وانظر فيه - أيضاً - 115 و 123 و 131 و 135 و 140.

التناص في بعض قصائده أشبه بتعويدة تشفي أوجاعاً مبرحة  
ظلت تصدمه بآهاتها... ولا شيء أدل على هذا مما ذكره في  
رسالة إلى صديق له ضمَّنها بيتاً لابن زيدون (الشاعر الأندلسي  
المشهور)؛ إذ قال في نهايتها: "إذا كنت قد أصبت بالخرس  
والشلل؛ فهل تراني كنت غافلاً عن ذكرك؟!":

لا سَكَنَ اللهُ قلباً عَن ذكركم

فلم يَطِرْ بجناح الشوق خفاقاً

ذكرك والله عالق بالروح ممتزج مع الدم"<sup>(1)</sup>.

فهذه الرسالة وغيرها تثبت أنه كان على صلة بالتراث  
العربي شعراً ونثراً، فاستلهمه في ثقافته وشعره، من دون أن  
ينغلق على الفكر الغربي المعاصر وآرائه<sup>(2)</sup>، وكذلك هي  
صلته بالأدب العربي المعاصر مثل ديوان العقاد (وحي الأربعة)  
الذي قرأه وأبدى إعجابه به، وهو الذي كان على صلة وطيدة  
بأعضاء من جماعة (أبولو)<sup>(3)</sup>.

---

<sup>(1)</sup> انظر ديوان أبي القاسم الشابي 243

<sup>(2)</sup> انظر المصدر السابق 267 و 282

<sup>(3)</sup> انظر المصدر السابق 255 و 260 و 266 وما بعدها و 280

ولعل بعض ما تقدم يؤكد أن ظاهرة التناص أو ما عرف  
بظاهرة استدعاء التراث كان جزءاً من الأسلوب الشعري  
للشاعر كما نراه في قوله<sup>(1)</sup>:

إذا صَغُرْتُ نفس الفتى كان شَوْفُهُ  
صغيراً، فلم يتعب، ولم يتجشَّم  
ومن كان جبار المطامع لم يزل  
يلاقى من الدنيا ضراوة قَشَعَم  
وقد سبقه إلى هذا المعنى المتبني؛ إذ قال<sup>(2)</sup>:

وإذا كانت النفوس كباراً  
تعبت في مرادها الأجسام  
وتعدّ تقنيات أسلوب (التناص) تقنيات قديمة تتطور بتطور  
الزمان والمكان والثقافة؛ وما زال الشعراء والمبدعون يتكئون  
عليها ليقدموا مشاعرهم وأفكارهم وصورهم وفق أساليب  
يرونها ودلالات يطورون بها إبداعهم. وما ينفك أحد منها سواء

---

(1) ديوان أبي القاسم الشابي 172. تجشَّم: تكلف على مشقة.

الضراوة: شدة الافتراس. القشعم - هنا - الأسد.

(2) ديوان أبي الطيب المتبني 345/3.

كان استدعاء التراث (التناس) عنده مباشراً أم غير مباشر؛  
إيماءً بالألفاظ والعبارات والأساليب والصور أم تصريحاً  
وتلويحاً يحتاج إلى كدّ ذهن، ويؤيدنا في هذا التصور قوله في  
قصيدة (زئير العاصفة):<sup>(1)</sup>

فيا أيها الظلمُ المُصعِّرُ خَدَّهُ

رويدك إن الدهر يبني ويهدم

سيئاًر للعز المحطّم تاجُهُ

رجال إذا جاش الردى فهمُ هُمُ

فأبو القاسم يردع الظالم المتكبر الذي ينظر إلى قومه  
نظرة ازدراء بترهيبه من سلطة الدهر فهي التي تقوّم سلوكه؛  
ثم يمضي إلى تقويم هذا التصرف المعوّج بقدره قوم لا يهابون  
الردى... وهذا كله مستمد من قول بشار بن برد:<sup>(2)</sup>

إذا الملك الجبّار صَعَّرَ خَدَّهُ

مشينا إليه بالسيوف نعاتبُهُ

---

(1) انظر ديوان أبي القاسم الشابي 159.

(2) ديوان بشار بن برد 317/1.

... ولذا فالتناص لديه روح شعرية تتغلغل في بنياته الفنية؛ وهي تحتاج من القارئ إلى مقاربات شتى؛ وقرارات عدة ومفتوحة حتى ينكشف له مضمون التناص في واقعه التاريخي والفني... ما يثبت أن عبقرية هذا الشاعر الفطن تكمن - أيضاً - في عملية التناص الذاتي الضمني...

وبناء على ما تقدم؛ وفي قراءة تأملية لشعره وتجربته الذاتية ومعاناته الضاغطة نفسياً وجسدياً، سياسياً واجتماعياً... ندرك أنه كان يشكّل - في صميم ذلك كله - تجربة الحدائث الشعرية في نسختها الشبابية التي تنطلق من الذات والواقع وتتصل بأفاق رؤية تختزل عدداً من الرسائل والأبعاد، وهو الذي اعتمد الشكل العمودي في التعبير عنها؛ ما يوحي بأن الحدائث بنية تركزت في العبارة والصورة وطريقة استخدام الألفاظ وقدمت موضوعها بكثير من الإدهاش، فضلاً عن استعمال طرائق السرد والحوار...

لذلك فإن الانعطافة الفنية المدهشة في شعر الشبابي ليست في طريقة التجريب التي يركز عليها النقاد والدارسون وإنما في استشراف الحلم الجميل الذي يحرص على القبض عليه في أحضان الطبيعة؛ وإظهار الحزن فرحاً والاستمتاع بالحياة واقعاً وفناً، متمسكاً بروح التفاؤل، ساعياً إلى إبعاد كل شكل من أشكال التشاؤم والألم المرضي الذي يؤدي بالمبدع إلى العزلة،

والانحراف عن الرسالة التي خلقه الله من أجلها... ولعل التدقيق في الشعر القادم يشعرونا بالمشهد الفني الصاهر للتقنيات الفنية التي يعتمد عليها في شعره؛ على شدة الحزن الذي تجذر في نفسه نتيجة مرضه ومعاناته الاجتماعية الضاغطة ما جعل الطبيعة<sup>(1)</sup> تحتل مكانة عالية من شعره وكأنها الأم الحنون لديه، كما نراه في قصيدة (من أغاني الرُّعاة) ومنها:<sup>(2)</sup>

أقبل الصبح يُعَنِّي للحياة الناعسة  
والرُّبى تحلم في ظل الفصون المائسة  
والصَّبَا تُرْقِص أوراق الزهور اليباسة  
وتهادى النور في تلك الفجّاج الدامسة

\* \* \*

أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاه  
فتمطى الزهرُ والطير وأمواج المياه  
قد أفاق العالم الحي وغنّى للحياة  
فأفيقي يا خرا في وهلمي يا شياة

(1) انظر ديوان أبي القاسم الشابي 280 - 281.

(2) ديوان أبي القاسم 190 - 191.

فالتبيعة الساحرة في الشمال التونسي بجبالها ووديانها كانت مصدراً للإبداع بما تختزنه من شحنات مُغذية لثقافة الشاعر وتجربته التي تميّزت بروح الخيال الطافح بالصورة المثيرة، ودفع المتلقي إلى تشوق قراءتها ومعرفة أسرارها التي تتحرك على رؤى منفتحة ومبنيّة على معرفة واعية تموج بالسرور تارة وبالحزن تارة أخرى. ثم إن ثنائية التقابل بين الموت والحياة؛ والماضي والحاضر؛ والغياب والبقاء، والحزن والفرح كانت تستجيب لخصوصية الحلم الذي ينجو من الأفخاخ المنصوبة لصاحبه.

ولعل من أجود الشعر الذي يجمع بين هذا الأسلوب والصور الخيالية المتألقة بالإشراق، والمحمولة على هاجس التطلع إلى روح الأمانى ما ورد في قصيدته (الأبد الصغير) التي نادى فيها قلبه في مطلع كل بيت من الأبيات الخمسة الأولى في المقطع الأول، ثم قال في مطلع الثاني: (1)

يا قلب! كم من مَسْرَّات وأخيلة

ولدّة يتحامى ظلّها الألم

---

(1) ديوان أبي القاسم 157 - 158.



غنت لفجرك صوتاً حالمأ فرحاً  
نشوان ثم توارت وانقضى النغمُ  
وكم رأى ليلك الأشباح هائمة  
مذعورة تتهاوى حولها الرُّجْمُ  
ورفرف الألم الدامي بأجنحةٍ  
من اللهب، وَأَنَّ الحُزْنَ والندم

\* \* \*

تمضي الحياة بماضيها وحاضرها  
وتذهب الشمس والشيطان والقمم  
وأنت أنت الخضمُّ الرحب لا فرحُ

يبقى على سطحك الطاغي ولا ألم

فلغة التقابل المستدة إلى الإيجاب والسلب؛ والطباق  
اللفظي في جملة من الأنساق الفنية ترسي في النفس تحفزاً  
قلقاً للبحث عن الدلالة التي تكمن وراءها... لنتأمل البيت  
الأول مثلاً محاولين القبض على المسرات التي تعتلج في ذاته...  
فإذا بها تطير على أجنحة الخيال، كالأخيلة التي لا تثبت على  
حال واحدة، فضلاً عن صورة تحامي الألم لأي ظل لها. ومن ثم  
لا يغيب عن بالنا أن نشير إلى هذه المقابلة بين الذات بوصفها

موضوعاً خفياً؛ وبين الطبيعة بوصفها موضوعاً ظاهراً يقدم للنص إichاءات جمالية مليئة بالمسرات... فالألم الدامي في حرقته الداخلية يقابل منظر النار الملهبة في الخارج؛ وكذا يقابل بين الماضي والحاضر في صميم الحياة التي تعبر بأبنائها إلى حيث لا يرجعون... وفي هذا وذلك تتفجر الأحزان والآلام التي تتلذذ بعرض صورها المتنوعة، بأسلوب سردي قصصي جذاب؛ أوقفه على كل أوتار الجراح النازفة منه... وبهذا كله فهو يتفوق على أي شاعر سبقه في إبراز القصيدة الذاتية المركوزة في المعاناة والحزن والألم وفي إطار التقابل المعتمد على مشاكلة التضاد أو ما أطلق عليه الثنائيات المضادة..

وثمة خصائص وأساليب أخرى يختزنها إبداع أبي القاسم الشعري والنثري ولأسيما تلك الرسائل الإخوانية التي أصلت لروح الحياة الاجتماعية التي قبضت على ناصية العطاء(1). ولا تستطيع هذه الوريقات أن تفيها حقها من الدراسة؛ بما تدل عليه من إichاءات رحبة، وصور غير منظورة... لذا نكتفي بما أثرنه فيها.

---

(1) انظر رسائله التي ضمها ديوانه 217 - 291.

### كلمة أخيرة

قَدَّمَ الشَّابِي لأجيال أمته خدمة جلييلة؛ حين حقق المثال الأرحب للشباب الطموح القوي الذي هزم الضعف والعجز؛ والمرض والكسل، واندفع إلى فضاء المجد والخلود ثائراً على كل النكبات والمعوقات بمثل ما ثار على الظلم والفقير... وجعل الطبيعة معادلاً موضوعياً لذاته في تحدي الفناء فانغمس فيها؛ وغنى لها... وبمعنى آخر لما كان إبداعه نتاجاً ذاتياً خالصاً كان في الوقت نفسه صورة للباعث الموضوعي الخارجي سواء كان روحاً أم جماداً... فلا غرو بعد ذلك كله أن تقام الدراسات الكثيرة<sup>(1)</sup> حول أدبه، وتبارى في ابتكار الموضوعات المستخرجة من إبداعه، رافضين قوله من قال: إنه كان يتطلع إلى عملية قطيعة مع تراثه؛ ساعياً إلى تبني ثقافة الآخر الغربي...

---

<sup>(1)</sup> من تلك الدراسات كتاب (شعراء النهضة العربية) للشاعر العراقي فالح الحجية - وكتاب (شاعر الحب والحياة) لأبي الحسن الشابي - وقد ذكر محقق الديوان (295 وما بعدها) عدداً من تلك الدراسات.

- وهناك مقالات كثيرة تناولت حياته وتجربته مثل مقال (الشاعر المريض) للأديب عبد الله الطائي.

فنحن ممن يعتقد بأن الشاعر عاش حياته بكل تجلياتها  
حباً وكرهاً؛ فرحاً وألماً في صميم ثقافته؛ وإخلاصه لبني  
قومه... وأراد لأدبه أن يكون معبراً عنها وعن رؤاه ومشاعره.

ولعل هذا كله يتقاطع مع الكتاب الذي ألفه الباحث  
المصري (طه عبد الباقي سرور) وأصدره سنة (1958م) بعنوان  
(أبو القاسم الشابي: شاعر الشباب والحرية) وتناول فيه  
مقدمات تتعلق بالشعر ومهمته، وولادة الشاعر ونشأته...  
وعرض لشيء من تونس الخضراء، وآراء النقاد المعاصرين في  
ذلك وفي تجربة الشابي... ما جعله يقدم مادة جيدة لا تبلى على  
مرّ الزمن.

وبعد؛ نرجو أن ينتفع المتلقي بما نضعه بين يديه؛ مفيداً  
مما يستقر في ذاكرته... راجين أن يغفر ما سقط منا، أو غاب  
عنا، فالمقام لا يستع لأكثر مما قدّمناه.

والله من وراء القصد

حسين جمعة

الثلاثاء 2013/9/10م

### المصادر

- 1 - إبداع ونقد (قراءة جديدة للإبداع...) - د. حسين جمعة - دار النمير للطباعة - دمشق - ط1 - 2003م.
- 2 - إيليا أبو ماضي (الأعمال الشعرية الكاملة) - جمع د. عبد الكريم الأشر - مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين - الكويت - 2008م.
- 3 - ديوان بشار بن برد - تقديم وشرح محمد الطاهر ابن عاشور - علق عليه محمد رفعت فتح الله، ومحمد شوقي أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1957م.
- 4 - ديوان الخرنق بنت بدر - تحقيق د. واضح الصمد - دار صادر - بيروت - 1995م.
- 5 - ديوان شعر المتلمس الطبيعي - تحقيق حسن كامل الصيرفي - مجلة معهد المخطوطات - القاهرة - ط2 - 1997م.
- 6 - ديوان طرفة بن العبد - تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقّال - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - 1975م.

- 7 - ديوان أبي الطيب المتنبي - شرح العكبري - دار المعرفة بيروت.
- 8 - ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله - قدّم له مجيد طراد - دار الكتاب العربي - بيروت - ط3 - 1997م.
- 9 - الرثاء في الجاهلية والإسلام - د. حسين جمعة - دار مَعَد للنشر - دمشق - ط1 - 1991م.
- 10 - المداد الحي (الآثار الشعرية والنثرية لأبي القاسم الشابي بخط يده) - تقديم د. نور الدين صمود - الدار العربية للكتاب - تونس - 2009م.
- 11 - النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية - د. عبد الله الغدّامي - المركز الثقافي العربي - بيروت/ والدار البيضاء - المغرب - ط2 - 2001م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## بين يدي شعراء الحرية

### أخي القارئ العربي

في أكبر مجمع من مجامع الأدب العربي الحديث، في مؤتمر أدباء العرب بالقاهرة، وقف الدكتور طه حسين، ليضع تاجاً وهاجاً على جبين الشعراء. قال:

".. والشعر هو الذي شارك بعد القرآن في تكوين القومية العربية". وتلك كلمة حق مجنحة مضيئة، فقد حمل شعراؤنا قيثارهم الذهبية، وانطلقوا في طليعة موكب الكفاح الخالد، في طليعة الزحف الوطني الصاعد، يضيئون الطريق لثوراتنا وانتفاضاتنا، ويذكروننا دائماً بوحدتنا، أمجادنا، وأيامنا المشرقيات، يوم كنا خير أمة أخرجت للناس.

ويواصل الدكتور طه حديشه الثائر، عن الأحداث الكبرى، التي يصنعها العرب اليوم بوحدهم وثورتهم، الأحداث التي تكتب التاريخ، تاريخنا، وتاريخ الإنسانية كافة. فيقول:

".. والشيء الذي أستطيع أن أؤكد له لحضراتكم وأنا مطمئن إلى أنني لا أتجاوز الحق، هو أن كل هذه الأحداث، إنما أنشأتها الثقافة، وأنشأها الأدب، والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات، إنما هم الأدباء، والكتاب، والشعراء، ولا شيء غير هؤلاء..."

إنه المشعل الخالد، مشعل الفكر القائد، إنه الأدب، نشره ونظمه، حافظ أرواحنا، وملهم قلوبنا، وقائد زحوفنا، وصانع أحداثنا.

إنه القلم ريشة من أجنحة النبوة، بل إنه القلم، الذي علم به الرحمن، رسله ومن يمشي في مواكبهم، من علماء وأدباء وشعراء، أبناء الأسرة المقدسة، أسرة الوحي والهدى والإلهام.

أخي القارئ العربي

لقد قدمنا لك في تلك السلاسل العربية الوطنية، التي تصدرها المكتبة العلمية، أعلام حريتك، وشهداء حريتك، واليوم جئنا إليك، لنقدم... شعراء الحرية.



نقدم لك، أصحاب الأجنحة الفضية، والأحلام الوردية،  
والأنغام الثائرة الملهمة.  
وفي طليعتهم. ذلك الوتر الذهبي العبقري، وتر الشابي،  
شاعر الحرية والشباب، وحامل لواء الصيحة الكبرى، في  
وجه الطغيان والاستعمار.  
نقدمه، حياة، وصورة، ولحناً وجذوة مضيئة، ونعمة  
ملهمة، تحلق في سمائنا، عزمًا، وبأسًا، ونورًا.  
وتلك رسالتنا إليك، وسلام الله عليك؟

طه عبد الباقي سرور نعيم



## تونس الخضراء



## تونس الخضراء

ضئع الدهر مجد شعبي ولكن  
سترد الحياة يوماً وشاحه  
إن ذا عصر ظلمة غير أني  
من وراء الظلام شمت صباحة  
الشابي

منذ أضاء الإسلام، أفق الشمال الإفريقي، وهو في رباط  
وحفاظ، وجهاد وصراع، مع الشعوب الأوربية، التي تدانيه  
وتلامسه، وتطل عليه من وراء أمواه الأبيض المتوسط.  
لقد خفق قلب أوربا بالحق والفضب على الإسلام، منذ  
زحوفه الطافرة الباهرة، في القارتين الكبيرتين العريقتين.

ولكن قلبها أحس اليأس والرعب، وهو يشاهد مآذن التوحيد البيضاء السامقة، ترتفع عزيزة شامخة، في ثغور، تونس، والجزائر، ومراكش.

لقد أيقنت أوروبا، بأن الإسلام العملاق، يقرع أبوابها، ويدق بقبضته الجبارة أسوارها، وأن الموجة العارمة القادمة، ستحمل مآذن التوحيد، إلى ثغورها وقراها.

ومن ثم، لم تشهد أرض إسلامية، ما شاهد الشمال الإفريقي، من صراع عنيف غضوب، تثيره أوروبا في إصرار، وفي عناد، وفي غلظة جاهلية.

تثيره حيناً بغاراتها المتتابعة المتدفقة من كافة الثغور الأوربية، وتثيره أحياناً، مستعينة بزعامات من البربر، وعصبيات من القبائل البدوية، التي تقف بالسيف، وتعيش بالدماء.

ومن قلب هذا الصراع الدامي الملتهب، برزت شخصية المغرب العربي التاريخية، شخصية المحارب الضارب اليقظ، الذي تجول عيناه في الأفاق، ترقب الوثبة المفاجئة، والللطمة المخاتلة. وتكونت في المغرب العربي شيئاً فشيئاً، تلك السمة التي طبعت تاريخه، سمه الحس الديني المرهف، والوجدان الإيماني الثائر، في عنف مشتعل.

ونشأ من هذا الصراع أيضاً، أن تحول المغرب العربي، إلى أمة محاربة تعيش في تعبئة عامة دائمة. حدثنا التاريخ عنها تحت شعارات: الرباط والمرابطين.

كان في كل ثغر من ثغوره، رباط منيع حصين، ومرابطون أكفاء مدربون يعيشون للقتال، لا يضعون السلاح، ولا تغفل منهم العيون، فالعدو الغادر المفاجئ، يأتي في كل حين، ممتطياً العباب، متستراً بالأمواج وبالضباب.

وكانت تونس الخضراء، أرض الجمال والأمل، هي عين الشاطئ الكبير وقلبه، فهي أقرب العواصم إلى الشرق العربي، وهي أدنى القواعد إلى الساحل الأوربي.

ولهذا كانت أقوى كتائب المرابطين الفدائيين تقوم في ثغورها الشهيرة، سوسة، ولطة، وتونس، والمنستير.

وتميز المرابطون الفدائيون، الواهبون أرواحهم لله في تلك الثغور، بالجنديّة الصوفيّة، فهم مقاتلون عباد، وفرسان تتلألأ في جباههم سمات الساجدين.

كانت قعقة السلاح لا يصمتها إلا هتاف الصلاة، وكان التهجد في المحارب لله، لا يقطعه إلا تلبية النداء، يوم الفداء.

ومن صفوف هؤلاء، انبثقت دولة المرابطين، حماة الساحل وفرسانه وعباده، ودولة الموحدين ذات الدور الإيماني التاريخي، في الصراع الأندلسي الإفريقي.

وينتصر الشمال الإفريقي، نصره المؤزر المدوي، فتعبر جحافل المضيق إلى أوروبا، وترتفع مآذن الإسلام في القارة ذات الكبرياء الحقود الجاهلي، ويلمع السيف الإسلامي هنا وهناك، ويندفع الفارس العربي مترنماً بأهازيجه ولحونه وأشعاره، ممتطياً براق النصر إلى قلب فرنسا، وشمال إيطاليا، وتنظر أوروبا مبهورة الأنفاس، إلى الأعلام العربية وهي ترتفع خفاقة فوق هضابها وسهولها.

وتزدهر الحضارة الإسلامية في تونس، وفي الشمال الإفريقي كافة، ويموج الساحل الكبير، بالعلماء، والشعراء، والفاثحين، وتتألأ الثغور، وتشيد المدن، وترتفع جامعات العلم، وتقام المصانع، وتمخر الأساطيل المظفرة عباب الماء، جبارة لا تغالب.

ويبلغ المد المرتفع الذرى، حتى تدفع أوروبا الجزية لتونس، كما تقول دائرة المعارف الإسلامية، نظير حق الاتجار معها.



ثم ينفصل ما بين الصلاة والجهاد من صلوات، وينقطع ما بين التسبيح والتدريب العسكري، من مودة وإخاء، فتفقد العبادة روحها، وينعدم من السلاح بأسه وحسمه.

ويمشي الوهن إلى العالم الإسلامي، وتتطفئ مصابيحهم، مصباحاً فمصباحاً، ويستيقظ الوحش الأوربي، بحقه التاريخي، فيرنو أول ما يرنو، إلى الساحل الإفريقي، حيث الخطر العربي الإسلامي، أدنى ما يكون إلى القارة الممتورة المسعورة.

وتتقدم فرنسا، الخصم الألد الخصام، فرنسا التي لم تغفر للإسلام أبداً أنه وجد على ظهر هذا الكوكب، فرنسا التي لم تنس يوماً أن الجند الإسلامي قد وطئ بلادها، وأذل كبرياءها، وأنه جاءها من تلك القواعد الإفريقية المغربية.

تتقدم وقد تهاوت شوامخنا العالية "ونام حراس أرضنا المقدسة"، فتثب في سعار مجنون على الجزائر، فتشعل حرب الفناء التي لم ينطفئ أوارها.. ثم يأتي دور تونس، وما أعجب مأساة تونس!!

لم تفتح تونس حربياً، ولم تقهر في ميادين القتال، بل احتلت غيلة وغدراً وخيانة!! خيانة من حاكميها، وأولى الأمر فيها.

فقد اصطنعت فرنسا حادثاً تافهاً على الحدود التونسية الجزائرية، - وهي لعبة الاستعمار القديمة الجديدة - ثم هددت وأرعدت وتنادت بأن اعتداء وحشياً قد وقع على حدود ممتلكاتها!! ولعبت الخيانة دورها، في براعة ونذالة، فإذا بحاكم تونس يوقع فجأة مع فرنسا في عام 1881م معاهدة قصر سعيد، المعروفة بمعاهدة "باردو" وقد أعطت هذه المعاهدة فرنسا حق الإشراف والهيمنة، على الشؤون العسكرية والسياسية لسلطنة تونس!! ثم أصبحت الحماية المؤقتة بمرور الوقت احتلالاً!!

ودخلت تونس منذ هذا التاريخ، داخل الستار الحديدي، للاستعمار الفرنسي، دخلت إمبراطورية العبيد، والسياط، والمشانق.

وإن كان الاستعمار الأوربي، هو أبشع مأساة في تاريخ بني الإنسان، فإن استعمار فرنسا للشمال الإفريقي، لهو أقذر دور في هذه المأساة!!

كان شعار فرنسا الذي عاهدت الشيطان عليه، هو القضاء على الإسلام كدين همجي!! وإبادة العرب كعنصر بغيض!! وتحويل الملايين في الشمال الإفريقي، إلى أكبر

مجموعة من الأرقاء الأذلاء في العالم كله.. أرقاء لا يعترف لهم  
بعقيدة، ولا بلسان، ولا بحق من حقوق الأدميين!!؟  
الأعراض تنتهك! والأموال تسلب! والأرواح تزهدق!  
والمساجد تدنس! والمصاحف تمزق.. ثم تداس بالأقدام!!  
ثم سيل متتابع متدفق من أحط العناصر الأوربية، يحتل  
المدن، والثغور، والمصانع والمزارع، والثروات، ويطردهم العرب،  
ويطردهم المسلمين؛ إلى الصحراء والجبال والهضاب، ومن تبرد  
منه بادرة فالموت بالغاز الخانق، والنار المشتعلة، وأخوات  
وشقيقات، من المهلكات الشبيهات بالغاز والنار.  
لقد كان الهدف الأكبر، أن يتحطم الروح الإسلامي،  
وأن يباد العنصر العربي، ليخلو وجه الساحل الإفريقي، للسيد  
الأوربي، تماماً كما أباد الأوربيون من قبل، سكان كندا  
واستراليا وأمريكا!!  
ولم ينهزم الروح الإسلامي، ولم يتحطم العنصر العربي،  
خرج أبطال الجهاد، وفرسان النضال؛ يصادمون فرنسا  
وينازلونها؛ ويملؤون الجو حولها ناراً ورعباً.  
ومن هذا الأفق؛ ومن هذا العنصر، جاء كالحلم  
الجميل، كالصبح المنير، شاعر تائر، يحمل قيثارة الخالدين،  
ويملك لهاة العبقرين.

وتشتعل القيثارة في يد الشاعر الثائر، وتلتهب لحونها،  
وتدوى نغماتها وتدوي، فإذا بأفاق تونس وهضابها، وجبالها  
وسهولها؛ تردد الدوي وتطلق الزئير.  
إذا الشعب يوماً أراد الحياة  
فلا بد أن يستجيب القدر  
ولا بد لليل أن ينجلي  
ولا بد للقيد أن ينكسر  
ومن لم يعانقه شوق الحياة  
تجأ في جوهها؛ واندر  
ومن لا يحب صعود الجبال  
يعش أبداً الدهر بين الحفر  
هو الكون حي يحب الحياة  
ويحتقر الميت مهما كبر  
فلا الأفق يحضن ميت الطيور  
ولا النحل يلثم ميت الزهر  
إذا طمحت للحياة النفوس  
فلا بد أن يستجيب القدر

وأعطى الشبابي لتونس سلاحاً حاسماً منتصراً، وأهداها  
سراً وسحراً، وعبد لها معراجاً، ورسم منهجاً، وجمع لها في  
كلمة واحدة فلسفة الحياة.

(إن الحياة هي إرادة الحياة)، فمن لم يعانق شوق الحياة؛  
ويضرب في شعابها وتهاويلها؛ تبخر في جوها واندر.  
فكوننا كون حي؛ وهو لهذا حليف أمين لكل حي؛  
وخصم عنيف لكل خانع قانع.

والشعوب التي تنفعل بإرادة الحياة، هي الشعوب التي  
تهيمن على الحياة؛ إن كل شيء في الوجود؛ يلبي هتافها.. حتى  
القدر.

وتشتعل القيثاراة الخالدة في يد الشبابي وتشتعل، فتُرسل  
شواظاً من نار؛ ونذيراً من رعود؛ يجلجل في مسمع الطاغية؛  
وينذر يوم البعث والثأر.

وفي صيحة الشعب المسخرزعزُعُ  
تخر لها شُمُ العروش، وتهدمُ  
ولعلمة الحق الغضوب لها صدى  
ودمدمة الحرب الضروس لها فم

إذا التفتْ حول الحق قوم فإنه  
يصرمُ أحداث الزمان ويبرم  
\* \* \*  
لك الويل يا صرح المظالم من غد  
إذا نهض المستضعفون وصمموا  
إذا حطّم المستعبدون قيودهم  
وصبوا حميم السخط أيان تعلم  
أغرّك أن الشعب مغض على قذى  
وأن الفضاء الرحب وسنان مظلم  
ألا إن أحلام البلاد دفينّة  
تجمجم في أعماقها ما تجمجم  
سيثأر للمحطم تاجه  
رجال إذا جاش الردى فهمو همو  
رجال يرون النذل عاراً وسبّة  
ولا يرهبون الموت والموت مقدم

إن مجد تونس، ووشاح هذا المجد؛ هما حلم الشاعر  
الخالد، وحلم الخالدين يصاغ دائماً، من إرادة الحياة.. تلك  
الإرادة التي يستجيب لها القدر.

أنا يا تونس الجميلة في لجج  
الهوى قد سبحت أي سباحة  
شرعي حبك العميق وإنني  
قد تذوقتُ مرّ وقراحه  
لستُ أنصاع للواحي ولو  
مت وقامت على شبابي المناحه  
لا أبالي... وإن أريقنت دمائي  
فدماء العشاق يوماً مباحة  
ويطول المدى تريك الليالي  
صادق الحب والولا وسجاجة  
إن ذا عصرُ ظلمة غير أنني  
من وراء الظلام شمت صباحه  
ضيع الدهرُ مجد شعبي ولكن  
ستردّ الحياة يوماً وشاحه

وجاء الصباح الحر الكريم، جليلاً رائعاً، كأمني  
الشاعر وأحلامه، فاسترد شعب تونس وشاحه.

وتحررت الأرض الطيبة المنجبة، التي ألهمت الشابي  
خواتمه وخوالده فما ينبغي لأرض، أنجبت شاعر الحرية  
الأكبر، أن تذلل... أو تستعمر.

خلقت طليقاً كطيف النسيم  
وحرراً كنور الضحى في سماه  
تفرّد كالطير أين اندفعت  
وتشدو بما شاء وحي الإله  
وتمرح بين ورود الصباح  
وتنعم بالنور: أنى تراه  
وتمشي كما شئت بين المروج  
وتقطف ورد الربا في رباه

\* \* \*

كذا صاغك الله يا ابن الوجود  
وألقته في الكون هذي الحياه



فما لك ترضى بذل القيود  
وتحني لمن كبلوك الجباه؟  
وتُسكتُ في النفس صوت الحياة الـ  
ـقوي، إذا ما تغنى صداه؟  
وتطبق أجزائك الناعسات  
عن الفجر.. والفجرُ عذبُ ضياه؟  
وتقنع بالعيش بين الكهوف  
فأين النشيد؟ وأين الإياه؟  
أتخشى نشيد السماء الجميل؟  
أترهب نور الفضا في ضحاه؟  
ألا أنهض وسر في سبيل الحياة  
فمن نام لم تنتظره الحياه  
\* \* \*  
إلى النور! فالنور عذبٌ جميلٌ  
إلى النور! فالنور ظلُّ الإله

## موطن الشاعر

في عام 647م قاد عبد الله بن سعد بن أبي السرح أول قوة إسلامية اجتازت حدود مصر إلى الشمال الإفريقي، وانتهى بها الزحف السريع إلى منطقة الجريد، فكانت أول بلد دخلها الإسلام من القطر التونسي.

ومنطقة الجريد، تشتمل على مجموعة رائعة من واحات النخيل الساحرة؛ تتوسطها بحيرة صافية المياه، أطلق عليها العرب - شط الجريد - وعلى الساحل الشمالي الغربي للشط، تقع مدينة "توزر" التاريخية، ولمدينة توزر ضاحية متواضعة هي: الشابية.

وتوزر هي عاصمة الجريد، وتقع على مسيرة مئتين وثلاثين ميلاً إلى جنوب الجنوب الغربي من مدينة تونس.

وهي مدينة وقرى متناثرة في الواحات الممتدة جنوباً؛ على مساحة قدرها أربعة أميال مربعة.

وتعتبر هذه الواحات من أخصب بقاع تونس، ويعود الفضل في خصوبتها إلى سلسلة متلاحقة من العيون والينابيع المتدفقة، والتي يبلغ عددها أربعاً وتسعين ومئة عين؛ تتفجر غربي كثبان الرمال، ثم تتحد فتؤلف جدولاً ينحدر نحو الشط.

ويحف بتلك العيون أطواق من النخيل، يبلغ تعدادها 228 ألف نخلة؛ تعطي ثمرًا حلواً مختلفاً ألوانه وأنواعه، ويتميز فيه نوع عالمي؛ يعرف باسم "دقلت نور" ويقول "البكري": إن ألف حمل من التمر تخرج منها كل يوم.

وتوزر مدينة عريقة عتيقة؛ يصعد تاريخها إلى العصر الروماني الأول، ويرى "التجاني": أن أهل توزر، من نسل الروم الذين كانوا بإفريقية<sup>(1)</sup> عندما فتحها المسلمون، ويرى صاحب "مسالك الأبصار" أن سكانها بربر قد استعربوا.

---

(1) كلمة إفريقية: تطلق تاريخياً على تونس.

وهي مدينة ثائرة غضوب، عرف أهلها بالبأس والشمم؛  
وتعشقهم للحرية والاستقلال؛ ويحدثنا التاريخ: أنها قاتلت في  
إصرار وفي عناد، كل من دنا منها.

ويقول الإدريسي عن أهلها: وكثيراً ما أجبروا أمراء تونس  
على امتشاق الحسام لردهم إلى طاعتهم.  
وتقول دائرة المعارف الإسلامية: "إن البايات<sup>(1)</sup> يلاقون  
مشقة كبيرة في جباية الضرائب منها.

ذلك هو مهد شاعرنا، ومرتع صباه؛ وهو يقدم لنا صورة  
من صور الجمال الطبيعي الفاتن؛ فيها الينابيع، وفيها النخيل،  
وفيها البحيرة؛ وهي عناصر غنية بالألوان، لا تقتصها إلا ريشة  
الرسام، أو نظرة الشاعر.

ومع هذا الجمال المتعدد الزخرف والسّمات، تبرز لنا  
صفات هذا الإقليم الغالبة، صفات الأنفة والعزة والحرية،  
وهي صفات سنلتقي بها عارمة سامقة في كل خطوة نخطوها  
نحو شاعرنا.

---

(1) باي: أي حاكم.

## نشأة الشاعر

1909 - 1934م

*سأعيش رغم النداء والأعداء*

*كأنسرفوق القمة السماء*

*أرنو إلى الشمس المضيئة... هازلأ*

*بالسحب والأمطار والأنواء*

*أصغي لموسيقى الحياة، ووحيتها*

*وأذيب روح الكون في إنشائي*

"الشابي"

في الصباح الباكر... مع انبثاق فجر يوم الأربعاء، الثالث من شهر صفر عام 327هـ، الموافق للرابع والعشرين من شهر فبراير/شباط عام 1909م.. جاء من الأفق الأعلى، إلى حياتنا الدنيا.. أبو القاسم الشابي.

أنجبته أسرة واضحة الصوت في تاريخ تونس، أسرة حمل أفرادها السيف، كما حملوا القلم.

وكان والده، محمد بن أبي القاسم الشابي؛ أحد القضاة الشرعيين المعترف لهم بالخلق الرفيع؛ والعلم المضيء؛ أجاز من الأزهر الشريف بعد دراسة دامت سبع سنوات، ثم التحق بجامع الزيتونة؛ فظفر بشهادة "التطويح" وهي، الإجازة العليا للدراسة.

ويصفه الأستاذ محمد الأمين الشابي فيقول<sup>(1)</sup>: "كان رحمه الله صادق التقوى قوي العقيدة، لا يخشى في الحق لومة لائم، له غيرة على شؤون المسلمين والإسلام، يفعل بما يجري آنذاك من أحداث بالشرق العربي، وطرابلس الغرب، أو بلاد الريف..".

ويتحدث أبو القاسم عن والده فيقول<sup>(2)</sup>: "إنه أفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود".

---

(1) مقدمة ديوان أغاني الحياة.

(2) الخيال الشعري عند العرب: الشابي.

وفي كنف تلك الأبوة الإنسانية العامرة الوجدان، بمعاني  
الرحمة والحنان المؤمنة بأن الحق هو روح الوجود، وأقدس  
مقدسات الحياة. نشأ أبو القاسم وترعرع، مقتدياً بتلك  
المثالية، محتدياً نهجها العالي.

وأسفرت طفولته الأولى، عن طبيعة ذات حيوية دافئة،  
وعن مزاج عصبي ثائر مرهف، وذكاء فطري خارق.

حفظ القرآن الكريم، وهو في سن التاسعة، ووعت  
حافظته الروائع المختارة من الأدب القديم نثره وشعره.

ثم انتقلت أسرة الشاعر من الشايبة إلى قفصة، ثم إلى  
زغوان حيث تولى والده رئاسة المحكمة الشرعية فيهما  
كليهما، ثم تتابعت رحلات الأسرة في البلاد التونسية، في  
جولات خاطفة متتابعة من قابس إلى سليانة فتالة، ومن مجاز  
الباب إلى رأس الجبل.

وقد أتاح هذا التنقل للشابي، فرصة ذهبية نادرة، للتعرف  
إلى البلاد التونسية، ومغانيها ومجالاتها، وألوان الجمال في  
سهولها وهضابها، واختلاف العادات والثقافات في بيئاتها، وما  
يعانيه أبنائها كافة، من ظلم الاستعمار وقسوته، وفساده  
وجبروته.

ويحدثنا الأستاذ محمد الأمين الشابي، عن أثر تلك الحقبة في حياة الشاعر فيقول<sup>(1)</sup>:

"... هذه مراحل طفولة أبي القاسم وشبابه، عملت على تضخم تجربته وتدفع شاعريته، وازدهار ريشته؛ بيد أن الشاعر أفاد ما يفيدته كل عابر سبيل متيقظ واع، إذا ما استقر بأرض كان ربيبها لا ابنها الأصيل، فأطلقه هذا المصير من حدود البيئة الضيقة، وأكسبه "تونسية" إنسانية الآفاق".

وتفتح الشابي، وتفتحت مواهبه واستكمل دراساته في المدارس الأولية: فأرسله والده في مطلع عام 1920 إلى تونس العاصمة؛ حيث التحق بجامع الزيتونة، أحد المراكز العالمية، للثقافتين العربية والإسلامية.

التحق الشابي بجامع الزيتونة، وهو في الثانية عشرة من عمره؛ قوي العاطفة في رقة، مرهف الحس في حدة، متوقد الذكاء في ثورة، يفيض قلبه بحيوية جبارة جواله، وأكبر من هذا، لقد بدأت ربات الشعر وملهماته يتزاحمن في أفق حياته، ويتعلقن بلهاته، ويرسلن مع أنفاسه، ألحاناً وأنغاماً، تستقر في

---

(1) من 9 ديوان أغاني الحياة.



وداعة ورشاقة، في الكلمات الحارة؛ فإذا بها الشعر الحي  
المضيء.

وفي جامع الزيتونة؛ أخذت شخصية الشابي، تتفتح وتشرق  
وتبين عن نفسها؛ وأخذت الألوان التي ستلازمه وتميزه تتكون  
وتبرز وتعلن عن مكانها.

واتسعت معارف الشاعر؛ وعمقت تجاربه؛ وأخذ يكون  
لنفسه شيئاً فشيئاً منهجاً ثقافياً مترامياً الآفاق.

وفي هذا المنهج تلاقى التراث العربي القديم في أزهى  
عصوره؛ وأسمق شوامخه؛ بروائع الأدب العربي؛ الثائر المجدد  
العالي الصوت في ألحان الطلائع الأدبية في مصر والعراق،  
والشام والمهجر.

وفي هذا المنهج نرى الشاعر أيضاً يفسح المكان الرحب  
الكريم للمبتدعات الأوربية، الشاعرية الساحرة التي فتنته،  
وامتزجت بأحلامه وخياله.

وفي جامع الزيتونة اصطدم الشابي بمجتمع متزمت،  
يضييق بالشاعر الثائر المجدد، ويضييق به الشاعر الثائر  
المجدد!!؟

لم تألف روح الشابي هذا الجو الغليظ، بقيوده ووقاره  
وجموده، ونظرتة الضيقة إلى الحياة، وإلى فنونها وألوانها.

ولم يَألف هذا المجتمع، الشاعر الرقيق الدقيق الأنيق،  
بروحه المتوثبة المتفتحة، وخياله الجامع المحلق المتحرر.

اختلف الفتى مع الشيوخ في عنف، وفي قسوة؛ وانطلقت  
الكلمات الجامعة لتجرح قلباً من أرق وألطف ما عرف الوجود  
الإنساني من القلوب!! وذاق الشباب كأساً مريرة؛ بالغة  
المرارة، سيظل طعمها في فمه!؟ وستسري مرارتها إلى لحونه،  
خالدة خلود لحونه.

وأحس الشباب بغربته في هذا الجو الغليظ الخشن،  
وأحس بوحده في تلك البيئة القاسية العتيقة، التي تعيش داخل  
أسوار من الأفكار والعقائد والعادات الجامدة المظلمة،  
فاشتعلت روحه بالثورة والتهب قلبه بالتمرد، واندفع بكل ما  
في قلبه من وقدة، وما في روحه من ثورة إلى المحافل الأدبية  
والصحفية يملأ الأفاق بهتافات التحرر والحرية، ونداءات  
التمرد والثورة على الجمود الديني، والتزمت الأدبي، والتخلف  
الرجعي؛ والاستعباد السياسي.

يقول شقيقه الأستاذ محمد الأمين الشبابي<sup>(1)</sup>: "إنك  
لتجده وهو يواصل دراسته؛ ويضع شعره في صميم حركات

---

<sup>(1)</sup> من 10، 11 ديوان أغاني الحياة.

الإصلاح التي كانت تعتلج بها النفوس آنذاك؛ من بعث لحركة الشباب المسلمين؛ ودعوة لتجديد الجهاز الثقافي التقليدي ومناصرتة لحركة تحرير المرأة، ودعوة للتجديد في الأدب، تحتل المكان الأول من نفسه. وقد أحدث كتابه "الخيال الشعري" الضجة الكبرى، واستهدف الشاعر بسببه لحملة صحفية عنيفة ثبت لها ثبات الرائد المؤمن بما يقول".

وظفر الشبابي من جامع الزيتونة بشهادة "التطويح" في عام 1927، ثم يضطرب تاريخ الشبابي بعد ذلك اضطراباً عجباً..؟

فالأستاذ أبو القاسم محمد كرو، وهو أول من كتب عن الشبابي وأرخ له، يحدثنا عن التحاق الشبابي بكلية الحقوق بتونس عام 1927. وتخرجه منها عام 1930. ويتابعه في ذلك الدكتور عمر فروخ<sup>(1)</sup> ثم يجمع الكاتبان على أن الشبابي كان لا يعرف إطلاقاً أية لغة أجنبية! ونقف هنا وقفة، للتاريخ وللتحقيق العلمي.

يقول الدكتور محمد مندور<sup>(2)</sup> "ومن الغريب أنني عندما طالعت بعض قصائد الشبابي ومقالاته النقدية، كدت أجزم

---

(1) شاعران معاصران، للدكتور عمر فروخ.

(2) الشعر المصري بعد شوقي ج3 ص 65.

بأن هذا الشاعر قد كان يجيد لغة أجنبية تمكنه - لا من الإلمام بأداب الغرب فحسب - بل ومن تذوقه لتلك الآداب وإحساسه بها، وتمثله لها ثم عدت إلى ما كتب عن تاريخ حياته فأخذتني الدهشة كل الدهشة عندما علمت أنه لم يكن يعرف لغة أجنبية، وأنه تخرج من الزيتونة بتونس ثم التحق بكلية الحقوق التونسية، وتخرج منها سنة 1930. ولكنه لم يتعلم لغة أجنبية. وعندئذ أدركت أنني أمام إحدى تلك العبقريات التي لا يستطيع البشر لها تفسيراً لأنها هبة الله". ويقول الدكتور زكي المحاسني<sup>(1)</sup>: "... على أن الشابي الذي ولد وعاش في تونس المستعمرة، وتعلم في كلية الحقوق، لا بد أن يكون على معرفة بالفرنسية، فالشباب المتعلم بتونس منذ فاتحة هذا العصر حتى الآن لا تنقص ثقافتهم هذه اللغة، لأن المستعمر قد أشاعها في المدارس الابتدائية والثانوية فكيف يترك الدراسات العليا للعربية؟ فإذا كان الشابي قد تلقى ثقافة حقوقية في معهد تونس فلا بد أن يكون قد عرف الفرنسية التي هي لغة المعهد وامتحانه، مهما تكن هذه المعرفة من الشاعر قليلة أو كثيرة، لأن الإشراف الفني في

---

(1) إبراهيم طوقان: شاعر الوطن المغصوب ص 87.

شعره، وسمات التجديد في المعاني والأداء، إنما ترجع إلى مثل هذه المصادر".

ثم يأتي شقيق الشاعر، الأستاذ محمد الأمين الشابي، فيحدثنا في مقدمته لديوان الشاعر، عن الشاعر، وعن حياته، وعن التحاقه بجامع الزيتونة، ولا يشير أية إشارة؛ إلى التحاق شقيقه بكلية الحقوق، فضلاً عن تخرجه منها وإنما يؤكد في يقين، أن شقيقه لم يكن يعرف لغة أجنبية، وأنه قد كون لنفسه، ثقافة عربية بحتة.

وبذلك يجمع مؤرخو الشابي، على أنه لم يكن يعرف لغة أجنبية فرنسية أو إنجليزية.

وما نعرفه عن مناهج التعليم في تونس، بل مناهج التعليم في أي بلد عربي، يؤكد لنا أنه من غير المعقول أن تكون دراسة الحقوق الجامعية، باللغة العربية وحدها.

ولهذا فنحن نرجح، أن الشابي لم يلتحق بكلية الحقوق التونسية بل لعله ترجيح، يبلغ درجة اليقين.

ولعل الشاعر، فكر وقدر، وأعد نفسه يوماً ما للالتحاق بجامعة تونس لدراسة الحقوق، تخلصاً أو تهرباً من جامع الزيتونة؛ ثم أعجزته ظروف حياته البالغة القسوة، عن تحقيق الفكرة والأمنية.

فقد ازدحمت حياة الشاعر ازدحاماً عجيباً بالنكبات القاسية المتتابعة واجتمع عليه المرض، والفقر، وتسكر المجتمع له، وضيق القادة به، وتبرم الاستعمار بجرأته، وانتفاضاته الثورية الحرة.

وأضيف إلى أعبائه وأثقاله، إقدامه في عام 1929 وهو في ريق شبابه قبل أن يبلغ العشرين من عمره، على زواج غير موفق، أدمى قلبه؛ وأحزن روحه، وأشعل الحرمان في كيانه. ثم انتقل والده إلى الرفيق الأعلى في العام نفسه، ففقد الشاعر بفقدته راعيه وعائلته، وألقى على عاتقه، كما يقول الدكتور عمر فروخ<sup>(1)</sup> عبء أسرتين ليعولهما؛ أسرته هو وأسرة أبيه؛ بينما كان هو نفسه لا يزال في حاجة إلى من يعوله ويساعده.

ويخترق أفق حياته طارق ثقيل بغيض، فيصاب فجأة بداء تضخم القلب، ويحذره الأطباء من عاقبة كل نشاط يزاوله، عقلياً كان هذا النشاط أو بدنياً، ولكن الشعر للشابي، كان الهواء والضيء والعزاء، وكانت إرادة الحياة لديه عارمة شاهقة، فيطلق في قهقهة راعدة نشيد الجبار:

---

(1) ص 16 شاعران معاصران.

سأعيش رغم الداء والأعداء  
كالنسر فوق القمة الشماء  
أرنبو إلى الشمس المضيئة.. هازئاً  
بالسحب والأمطار والأنواء  
وأسيرُ في دنيا الشاعر حالماً  
غرداً — وتلك سعادة الشعراء

ويحدثنا شقيقه فيقول: إنه رغم فقره ومرضه ورعايته  
لأسرة في أمس الحاجة إلى جهده وعمله: لم يلج باب الارتزاق  
من المناصب الحكومية - ضناً بحرية الأديب والشاعر - ورضي  
بحياة بسيطة، على رأس أسرته "بتوزر"<sup>(1)</sup>.

وتصفه مجلة العالم الأدبي، وهو يرزح تحت دمدمة  
العاصفة... "كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل  
ألوانها، والطموح على خير وجوهه".

واشتدت آلام الشاعر النفسية والجسدية، فكان ينتجع  
المصطافات الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسي والمشروحة  
ببلاد الجزائر.

---

(1) مقدمة ديوان أغاني الحياة.

وفي كل بقعة آوى إليها الشاعر، وفي مصبح اليوم وممسه؛ وفي الظلمات والنور، لم يفارق الشاعر قيثارته الخالدة، يملأ بها الدنيا، أنغاماً وإلهاماً؛ وشعراً عبقرياً.

وفي مطلع عام 1934 أخذ الشاعر المتفائل بالحياة، يعد ديوانه "أغاني الحياة" ثم غلبه المرض واشتدت وطأته، فقصده الشاعر إلى تونس يستفتي الأطباء؛ وعجز الطب... وصعد الروح العبقرى إلى سمواته العلا، وآفاقه النورانية، في وقت السحر، من صباح يوم 9 أكتوبر/تشرين الأول عام 1934 بالمستشفى الإيطالي.

وحملت تونس جثمان الشهيد إلى بلدته "توزر" حيث البداية والنهاية.

ويصفه الأستاذ البشير الفورتي، عميد الصحفيين التونسيين فيقول: "نحيف الجسم، مديد القامة، قوي البديهة، سريع الانفعال، حاد الذهن، تكفّف رقة طبعه من غرب عاطفته وحدة ذهنه، يراه أصدقاؤه بشوشاً، كريماً وديعاً متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية.

ويراه من لم يخالطه حياً محتشماً، ويعرف منه هؤلاء وأولئك، صراحة حازمة قوية يبيدها لخاصة خلطائه في غير ما تخرج متى اجتمع بهم، ويجاهر بها العموم في شعره ونثره،



وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية، يؤمن بأن لقادة الفكر رسالة إنسانية سليمة، حاول جهده أن يحققها في أثناء حياته القصيرة قولاً وعملاً<sup>(1)</sup>.

ويقول زين العابدين السنوسي، في كتابه - الأدب التونسي في القرن الرابع الهجري:

"... لم أعرف الرجل الشابى... إلا لماماً، ولم أقابله إلا مقابلات تكاد تكون رسمية، تعرفنا فيها به، وتسمعنا فيها إلى أدبه. وكان خجولاً خافت الصوت.. حتى إذا سمعنا ما سمعنا، كبر الفتى في أعيننا، ورأينا منه جباراً من جبابرة الأدب الرائع العتيد.

وكان متمرداً طموحاً؛ تنبعث منه روح تدافع عن الحق وتتغنى بالحرية وتحمل على الاستبداد المادي والروحي، حتى أن جميع من فعل ذلك، كان يصيح بلسان الشابى".

ويقول الدكتور أبو شادي:

"ولم تزل قصائده الموجهة للشعب، ترانيم سماوية خالدة؛ ومبعث قوة خارقة؛ لأدب الانبعاث القومي في العالم العربي لا في تونس فحسب... وإن سكن جثمانه القبر..".

---

(1) مقدمة ديوان أغاني الحياة.



## **الشابي ومذاهب الشعر العربي**



## ثورة على عمود الشعر

في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ ثار كل شيء في الشرق العربي والتهب. ثورات يأخذ بعضها بأعناق بعض، إنها الحياة تفجرت يبايعها في أرض العروبة، فاهتزت وانتفضت، وأخذت تمزق الحجب، وتحطم الأغلال، وتحاول البناء في كل ميدان من ميادين الحياة.

وجاءت ثورة الأدب عارمة صاحبة، إنها ثورة أقلام تريد أن تحرر أدبها العربي من قيود غلاظ شداد؛ فرضتها عليها أجيال وأحقاب.

أقلام تريد لأدبها العربي أن يصعد إلى الأفق العالمي، وأن يساير قافلة الفكر الإنساني، في خطوبها السريع القوي، نحو القمم الشامخة المضيئة.

ودارت معارك الأقلام أعنف ما تكون، حول عمود الشعر القديم، ومذاهب التجديد الحديث، وما ابتدع أدباء أوروبا من مفاهيم براءة خلاية للشعر ورسالته.

يقول الدكتور طه حسين<sup>(1)</sup>: "فأما الكتاب فجرؤا إلى الأمام؛ وتخلف منهم فريق، وأما الشعراء فجرؤوا إلى وراء ولم يكذ يتخلف منهم أحد، ومن هنا كان النشر العربي في هذا العصر جديداً كله، أو كالجديد. وكان الشعر العربي في هذا العصر، قديماً كله؛ أو كالقديم. ومن هنا كثرت معارضة البارودي وشوقي وصبري وحافظ لفحول الجاهلية والإسلام في الشرق والغرب، ولم يكثر بين الكتاب الناثرين من تأثر بعبد الحميد، أو ابن المقفع، أو الجاحظ فإن وجد منهم من تأثر بهؤلاء الكتاب فهم قليلون، وتأثرهم ضيق محدود لا يلبث أن يزول؛ أو يقوم مقامه تأثر بكتاب آخرين ليسوا من العرب وأدابهم في شيء.

ثم يقول:

".. ولكن في مصر طائفة من الأدباء يشق عليهم أن يقال لهم أن ليس لهذا العصر شعراء في مصر، وكيف لا! وفي مصر

---

(1) حافظ وشوقي ص 9، 10.

أمير الشعراء، وكبير الشعراء، وشاعر النيل، وشاعر القطرين، وشاعر العرب، وما شئت من هذه الأسماء والألقاب. وليس من شك في أن هؤلاء الأدباء معذورون، فهم بين جاهل للمثل الأدبي الأعلى وبين متأثر بالوطنية، يريد أن يكون وطنه صاحب الزعامة الأدبية في الشرق من جهة، وأن يثبت للبلاد الغربية في الجهاد من جهة أخرى وكل هذا حسن، أو كل هذا محتمل، ولكن هذا شيء والحقائق الواقعة شيء آخر، ولا بد أن يقتنع الأدباء جميعاً بأن ليس في مصر رأي عام في الأدب يدفع إلى الحرية الأدبية؛ كما تكون فيها رأي عام في السياسة يدفع إلى الحرية السياسية.

ويتابع الدكتور طه حملته؛ فيرمى شعراء مصر جميعاً بالتقليد الأعمى، وبانعدام الذاتية والشخصية<sup>(1)</sup>.

"... فهؤلاء الشعراء الذين ينظّمون في الحكم والأخلاق، إنما يريدون أن يتأثروا بالمتنبي وأبي العلاء فشخصيتهم هذه الحية الزاهدة شخصية مصنوعة.

كما أنهم حين يتغنون الخمر، ويتهاكون على وصفها، إنما يريدون أن يتأثروا أبا نواس والأخطل، فشخصيتهم هذه

---

(1) من 15 حافظ وشوقي.

الماجنة شخصية مصنوعة. كما أنهم حين يمدحون النبي إنما يريدون أن يتأثروا صاحب البردة، فشخصيتهم هذه مصنوعة. وهم لا يسلكون طريقاً من طرق الشعر، ولا يتعاطون فناً من فنون الشعر إلا مقتادين مقلدين، فهم يصنعون شخصياتهم التي تراها في شعرهم، هم يخفون بها شخصيتهم الأولى التي فطرها الله، وهم بهذا التكلف يحولون بينك وبين الوصول إليهم وفهمهم كما هم في حياتهم العادية. ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يفلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تأثير التكلف والتصنع والتقليد وتملق الجماهير والأفراد في هذه المرآة...". ويرتفع بجوار الدكتور طه، صوت آخر عنيفاً قاسياً، مندداً بالشعر والشعراء هو صوت الأستاذ العقاد.

"... (1) وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات في الصنعة، فملؤوه بالتورية، والكناية والجناس والترصيع، وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظمها ليزينوا بها كتب البيان والبيدع.

---

(1) من مقال له بمجلة الفصول.



وظهر في الشعر التطريز والتصنيف والتشطير والتخميس، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها؛ كما يتبارى الأطفال في جمع الحصى الملون وتضييده، وكان الشاعر منهم يلاحق البيت بالبيت، أو يشك المصراع بالمصراع؛ ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب أنه يخل بروح الشعر، لأنه يلتزم حرف الروي في كل بيت، وعروض البحر في كل قصيدة...".

ويقول الدكتور محمد مندور: "(1) هذه كانت درجة الشعر العربي من الانحطاط عندما ظهر البارودي الذي عاد إلى منابع الشعر العربي السليم فاستطاع أن يخلص الشعر من هذه الآفات القاتلة، وأن يعيد إليه ديباجته الناصعة. ثم جاء شوقي الذي سار على الدرب نفسه حتى بلغ القمة بالشعر التقليدي فرد إلى الشعر العربي جماله القديم، ولكنه لم يخرج بجمله شعره عن الدروب المطروقة المتوارثة".  
وآمن رجال التجديد بمطران كمرحلة من مراحل التطور في الشعر العربي أو كنقطة بداية في رحلة بعيدة المدى.

---

(1) الشعر المصري بعد شوقي جـ 2.

يقول الدكتور طه<sup>(1)</sup>:

"عرفت مطران معجباً بشعره، مؤثراً له على شعر المعاصرين جميعاً، وكنت أسمع شعره وشعر حافظ وشوقي فأوثر شعر مطران في وجه حافظ وشوقي، لا احتياط إلا في ديباجته التي كنت أراها مقصرة عن معانيه بعض التقصير، وكان حافظ وشوقي يسمعان ويعرفان ولا ينكران وكنت أزعم لهم جميعاً أن مطران في المحدثين كأبي تمام في العصر القديم، وأنهما وغيرهما من الشعراء يعيشون حول مطران كما كان شعراء العراق والشام يعيشون حول أبي تمام".

ويقول الدكتور مندور: "... ومع ذلك فإن عبقرية مطران لم يتبدد أريجها سدى، بل لعل تلك العبقرية هي التي كانت نقطة البدء في سطور الشعر العربي الحديث وتنوع فنونه وتجديد معانيه".

وتتلمذ على مطران شعراء مدرسة أبوللو، الذين تنادوا بإتباع مناهج الأوربيين في شعرهم، الرومانتيكي، والواقعي، والرمزي، وفي تلك المدرسة بزغ نجم الشابي.

---

(1) حافظ وشوقي.

ومن أقصى الأفق الغربي، من العالم الجديد، خلف المحيطات، حيث كل شيء يتطور ويتلوث ويشب، جاءت إلى دنيانا أصداء مدرسة أدبية أكثر تطرفاً وتطوراً في مناهج الشعر ومقاصده، ولحونه وأوزانه.

ولم يقنع أدباء المهجر، بإتباع المنهج الأوربي في الشعر ومذاهبه، بل ثاروا ثورة عارمة، طابعها التحلل والتمرد على كل مقدسات الشعر العربي القديم.

لقد تتادوا بأن الشعر هو الموسيقى والجمال واللمسة الإنسانية، هذا هو الجوهر، وما سواه فمهدر الكرامة والقداسة. ومن ثم فقد تحللوا من قيود اللغة وأصولها، والقافية وأوزانها، وأعطوا لأنفسهم حقاً في اشتقاق المفردات وارتجالها وابتداعها.

وفي أعقاب المدرستين، نشأت مدارس، وتعالمت صيحات، هنا وهناك على ضفاف النيل وبردى والفرات.

مدارس يجمعها شيء واحد، هو الثورة على عامود الشعر العربي القديم. ثم لا تتفق بعد ذلك على منهج محدد، أو هدف واضح الملامح والسمات.

ولقد تنازع نقاد الأدب الشبابي، وطوفوا به على تلك المدارس كافة، وحاول أنصار كل مدرسة أن يظفروا به داخل حدودها وأسوارها، وأن يعتبروه شاهداً ونجمها.

ولقد أسرفوا على أنفسهم، وأسرفوا على شاعرنا في تلك المحاولات، فما كان الشبابي نبت مدرسة واحدة، ولا تستطيع مدرسة واحدة أن تزعم أنها أنجبت شاعراً عبقرياً إماماً.

إن العباقرة لا تتشبه المدارس، ولا تتجهم القواعد والمناهج، فالعسكري بذاته منهج وقاعدة، إنه الأصل والقانون، ثم تقام المدارس على لحنه ونهجه، وإبداعه وفنه.

لقد درس الشبابي هذه المدارس وتأثر بها. ما من شك في ذلك، ولكنه استطاع أن يحلق فوقها، وأن يخترق سماءها، وأن يكون لنفسه ولفنه مدرسة جديدة، عليها ظله وطابعه، وفيها شعلته وتوجهه.

ولقد أسرف أتباع المدارس التجديدية أيضاً على أنفسهم، وعلى رسالة الشعر، في تعصبهم الغليظ لمناهجهم التي آمنوا وتنادوا بأنها وحدها الرسالة القدسية للشعر والشاعر.

وقد لمس الشبابي هذا الإسراف، وثار عليه وسخر منه. ويحدثنا الشبابي في دقة العالم، وشفافية الفنان، عن مذاهب الشعراء، التي انبثقت فجأة في أفقنا متعصبة متغالية، فيقول:

"...<sup>(1)</sup> إنه ليعي المرء - مهما حاول - إحصاء المذاهب والنزعات التي تضطرب في نفوس الشعراء والنقاد والمتأدبين، وتتقاذف الأدب العربي المعاصر أخذاً ورداً، وجزراً ومداً، فهناك النزعة الخيالية، وهي نزعة لا تعتبر الشاعر شاعراً، إلا إذا كان شعره، عالماً سحرياً لا تنتهي أطرافه وخيالاته، ولا أضواؤه وظلماته، وتشعر فيه نفس القارئ أنها قد ارتفعت إلى ما وراء الغيوم وما خلف النجوم... وهناك النزعة "الرمزية" وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يتحدث للناس من وراء السحاب، أو ملفوفاً في مثل الضباب، ولا تتطلب منه إلا كلاماً مبهماً لذيذاً شبيهاً بالموسيقى في لغتها الغامضة، التي كلما أصغى لها السامع حركت في نفسه ضروباً من الحس والتصوير والخيال غير ما حركت من قبل، وعبرت له في كل لحظة تعبيراً جديداً لا تنتهي ألوان المتعة والطرافة فيه... ومنها النزعة "الفلسفية" وهي نزعة لا تفهم الشاعر إلا أن يكون فيلسوفاً له فلسفة مضبوطة محكمة لا تضطرب مقدمتها، ولا تختل نتائجها، ولا تتناقض أجزاءها بتناقض حالات الشاعر النفسية واضطرابها بين الشك والإيمان، والثورة والسكون، واللذة والألم.

---

(1) مقدمة الشابي لديوان الينبوع.

ومنها النزعة "الثورية" وهي نزعة لا تعترف للشاعر بالشاعرية إذا لم تكن له في آثاره قوة العاصفة الداوية، والبراكين الطاغية، ينطق فتتطلق كلماته مجلجلة جامحة، ترج الحياة في أعماقها رجاً، وتزلزل هدوء الأحلام، ويتكلم فيندفع اللهب من كلماته المتوهجة بنار الحياة.

ومنها النزعة "المتعمقة" وهي نزعة تأبى على الشاعر إلا أن يكون عميقاً كالليل، لا يناجي أبناء الإنسان بهاته المعاني الواضحة البادية التي تستوعبها اللمحة الخاطفة، والنظرة الطائفة في الفضاء، وإنما تريد منه أن يناجيهم بما في أعماق الحياة والموت والوجود والعدم، وما في خفايا ذلك العالم المجهول الذي يحمله قلب الإنسان، من عبودية عريضة للحياة، وثورة على نواميسها العاتية.

ومنها النزعة "التاريخية" وهي نزعة تتكرر على الشاعر كل شيء إلا أن يكون ظلاً واضحاً لهذه الحياة العابرة، يستطيع المؤرخ أن يجد في آثاره صورة حية من عقائد الشعب وعاداته وأطواره، وتقلباته وأحلامه وخرافاته.

ومنها النزعة "السياسية" وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يكون زعيم قوم يدعوهم إلى النهضة والحياة، ويهيب بهم إلى الضرب في سبيل الزمان الذي لا تنتهي تعاريجه وعقباته.

ومنها النزعة "الصحافية" وهي نزعة تريد من الشاعر أن ينظم في أحداث اليوم ومشاكل الساعة، ويقدم للناس صحفاً منظومة يسجل فيها حوادث العالم في السياسة والاقتصاد وكل شيء آخر، وعلى الفكر والإحساس والعاطفة، رحمة الله.

ومنها النزعة الغزلية، وهي نزعة لا ترضى من الشاعر إلا إذا قدم حياته قرباناً للمرأة، وأحرق مواهبه بخوراً تحت قدميها الجميلتين، ولم يتكلم بغير لغة الحب والدموع، وأما بقية لغات النفس وعواطفها الأخرى، فعليها لعنة الشعر والحياة، ثم لعنة حضرات السادة الغزليين...

لقد تصارعت هذه المواهب وتناطحت، ورفع كل منها علم الثورة والتجديد! وحصر نفسه في جزئية من جزئيات الحياة آمن بها وحدها، أو كما يقول الشابي:

حصر نفسه في لغة من لغات النفس، وأما بقية لغات النفس وعواطفها الأخرى فعليها لعنة الشعر والحياة!! لقد حصروا أنفسهم داخل قواقع ضيقة، وصرخوا ملء حناجرهم مطالبين الناس جميعاً، أن يؤمنوا بما آمنوا، وأن يخضعوا لما افترضوا، وتناسوا أن الشعر ينبع في النفس، وشعلة في القلب

وأن وحيه حر طليق، لا يخضع لقييد، ولا يحده أفق، ولا ترسمه مناهج. يقول الشابي:

"...<sup>(1)</sup> والحق إننا نخطئ كثيراً إذا حاولنا أن نفرض على الشاعر آراءنا وأخلاقنا ومذاهبنا فرضاً، ولن نجني من وراء ذلك إلا تضليل المواهب الجديدة الناشئة، وسخرية المذاهب الكبرى، السائرة إلى النور، وليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره "بغير الحياة" وإذا جاز لنا أن نطالبه بأكثر من هذا فلنطالبه بأن تكون هذه الحياة، رفيعة سامية، تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله، ففي الحياة كثير من حماقات والدنايا، يتعالى الفن عن التداني إليها من سمائه العالية..."

وفي تلك الكلمات تحديد رائع لرسالة الشعر، وتحليل أمين مبين، لمنهج الشابي ورسالته ومدرسته. فليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره "بغير الحياة" التي تضي على كلمات الشاعر ولحونه، النبضة الخالدة، واللمسة الساحرة، والإشراق المضيئة.

---

(1) مقدمة الشابي لديوان الينبوع.



الحياة التي تبتثق في القلم، فإذا به يضح ويتحرك  
وينفعل، ويترك ضجيجه وحركته وانفعاله، في كل قلب،  
وفي كل روح، وفي كل حس، يدنو منه.

الحياة التي تتنفس في المعاني، فإذا بها ترتفع وتسمق  
وتتلون، بألوان الفتنة والجمال والخلود.  
ذلك هو الشعر الذي يكلل جبين الدنيا، خالداً خلود  
الحياة، باقياً بقاء الوجود.

والشابي يرتفع برسالة الشعر، لأنه عنده شيء مقدس له  
جلاله وجماله، فلنرتفع بهذه الحياة، الحياة التي نطلقها في  
لحونه وأنغامه، لتكون حياة رقيقة سامية تتكافأ مع ما  
للشعر من قدسية الفن وجلاله، ففي الحياة كثير من الصور  
الهابطة التي يتعالى الفن عن التدني إليها من سمائه العالية.  
والشابي لا يريد بهذا، أن يضع قيوداً، أو يبتدع أغلالاً،  
للشعر ورسالته، وإنما هو يتسامى بالشيء الجليل العظيم،  
يتسامى بالفن النبيل، عن الدنيا والظلمات.  
ويتابع الشابي تعريفه لرسالة الشاعر فيقول:

"(1) .. أن يحرص الشاعر كل الحرص على التعبير عما يدوي في أعماق نفسه من أصداء الحياة، وما يخالجهما من وحي هذا الوجود، وعلى ألا يضيع من ذلك شيئاً ما استطاع إليه سبيلاً".

ثم يقول: "(2) .. إن كل تقصير في ذلك يعد خيانة لأمانة الفن. فالشاعر لم يوجد إلا ليؤدي رسالة الكون الذي لا تسكت ألسنة الهواتف فيه، وكلما قصر الشاعر في أداء هذه الرسالة كان خائناً لرسالته، وغير مخلص لفنه".

وبذلك يجعل الشابي الشعر وحيّاً وإلهاماً، ويجعل التقصير في التعبير عن هذا الوحي والإلهام خيانة لأمانة الفن.

فالشاعر لم يوجد إلا ليؤدي رسالة هذا الكون. الذي لا تسكت ألسنة الهواتف فيه.

وعلى هذا الضوء المبصر، وعلى هذا الفهم المشرق، لرسالة الشعر والشاعر، وقدسية الشعر والشاعر، عاش الشابي، وهو يحس في أعماقه، ويؤمن بكل قواه، بأنه يحمل رسالة ويؤدي أمانة.

---

(1) الأدب العربي في العصر الحاضر، للشابي.

(2) الأدب العربي في العصر الحاضر، للشابي.

وبهذه العقيدة عاش الشابى، مترفعاً بشعره، معتزلاً بفضله،  
متغالياً فى كبريائه.

وبهذه العقيدة، انطلق فى أفق الحياة، كالنسر فوق  
القمة السماء، تخفق أجنحته فى الأفق الأعلى؛ عند مطلع  
النور، ومشرق الضياء.

يغرد وحي قلبه، ويرتل أنشودة نفسه، ويترجم أحلام  
أمته، ويقود مواكب الطليعة، ويصارع قوى الطغيان، ويبشر  
بالطهر والحرية والإيمان، غير ملتفت إلى جاه، أو بريق، أو  
متاع، مما يسحر أعين الناس، ويسترق قلوبهم، ويستذل  
أرواحهم.

يقول الشابى:

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير  
بمدحه أو رثاءً تُهدى لرب السرير  
حسبى إذا قلتُ شعراً أن يرتضيه ضميرى

\* \* \*

ما الشعر إلا فضاء يرفُ فيه مقالي  
فيما يسرّ بلادي وما يسرّ المعالي

وما يشير شعوري من خافتات خيالي

\* \* \*

لا أقرض الشعر أبغي به اقتصاص نوال  
الشعر إن لم يكن في جماله ذا جلال  
فإنما هو طيف يسعى بوادي الظلال  
يقضي الحياة طريداً في ذلّة وانكسار

\* \* \*

ذلك هو هتاف الشاعر وإيمانه برسالته، وقدسية  
أهدافه، تتأدى به الشاعر الحر المتعالي برسالة الفن وهو في  
صدر شبابه قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

ويقول الأستاذ أبو القاسم محمد كرو في كتابه: "كفاح  
الشبابي"<sup>(1)</sup> "إن الفقيه الشاب قد حافظ على مبادئه هذه، بل  
وتطرف فيها، فلم يرث حتى والده وقد كان عنده أعزّ مخلوق  
في الدنيا، لم يرثه إلا بأبيات ليست من الرثاء في شيء، وإنما

---

<sup>(1)</sup> ص 51.

هي حديث وجداني مجنح عن نفس الشاعر وعبوديته للحياة  
وحبه لها، وعودته إليها في شوق العابد، وحنان الحبيب:  
ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي  
ومشاعري عمياء بالأحزان  
أنني سأظلماً للحياة وأحتسي  
من كأسها المتوهج النشوان  
وأعود للدنيا بقلب خافق  
للحب والأفراح والألحان  
ولكل ما في الكون من صور المنى  
وغرائب الأهواء والأشجان  
حتى تحركت السنون وأقبلت  
فتن الحياة بسحرها الفتان  
فإذا أنا طفل الحياة المنتشي  
شوقاً إلى الأضواء والألوان  
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها  
ضرب من البهتان والبهذيان

إن ابن آدم في قرارة نفسه

عبد الحياة الصادق الإيمان

\* \* \*

لقد حدد الشاعر رسالة فنه، فهو لا ينظم الشعر، إرضاء  
للأمير، أو رثاء لرب السرير!

ولا يقرضه بيتي به اقتصاص نوال، أو جزيل عطاء، إنما  
شعره نبع مشع قدسي، ينبثق من شعوره وضميره، ليترف في  
الفضاء الفسيح، في الأفق الشاهق، حيث المعالي، والجمال،  
والحرية والطبيعة الحية النقية الملهمة.

وتذكرني قصيدة الشابي بكلمات للدكتور طه حسين  
التي يقول فيها.

"..<sup>(1)</sup> أصبح الأدب العربي الحديث نثراً كله، وأصبح  
الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلي فناً عرضياً لا يحفل به  
إلا للهو والزينة والزخرف.

فإذا أراد بنك مصر أن يفتح بناءه الجديد، طلب إلى  
شوقي قصيدة فنظم له شوقي هذه القصيدة، وإذا أرادت دار

---

<sup>(1)</sup> من 149 شوقي وحافظ.

العلوم أن تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون، طلبت إلى شوقي والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد، فنظموا القصائد. وإذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه، أو نبه نابه، وأريد الاحتفال بتكريمه، طلب إلى الشعراء، أن ينظموا الشعر في المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء، فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي أو حافظ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مآتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن.

فأما الشعر الذي يقال لنفسه، الذي يقال ليجلو مظهرًا من مظاهر الجمال الطبيعي، الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء، الذي يقال لا ليلمق عاطفة من العواطف، أو هوى من الأهواء، فلا تلمسه عندنا ولكن التمسّه عند قوم آخرين، عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربؤوا بها عن أن تكون أداة للهوى والزينة....".

ولا شك في أن الدكتور طه قد أسرف في سخريته من شعراء المدرسة القديمة، ولكنه قدم لنا صورة لا يمكن أن نتجاهل صدقها ودلالاتها على أهداف الشعر ومجالاته وآفاقه لدى المدرسة القديمة أو المدرسة الوسطى كما يطلق عليها الأستاذ العقاد.

ولا شك أيضاً في أن الشابي ترجح موازينه عند التقابل في  
الفهم الفني لرسالة الشعر والشعراء، فقد ارتفع بكرامته  
وبهامته عن أن يكون شعره... للهو والزينة.

\* \*



## مكانة الشابى من الشعر العربى



## رسالة الشعر العربي

يقول الأستاذ المستشرق - جب - في تراث الإسلام: "... إن أدب العرب أدب رومانتيكي. فهو في أقدم نماذجه يغلب عليه الخيال والتصوير، وإن من يرجع إلى نماذج امرئ القيس، وهو من أقدم الشعراء الجاهليين يلاحظ أنه يعنى بالتصوير في شعره كأن "التصوير" غاية في نفسه، فالأفكار تتلاحق في صفوف من التشبيهات، حتى تستتم هذا الفن من التصوير، وكأن القصائد برود يمانية، ففيها ألوان ونقوش ورسوم على صور وأشكال عديدة".

ويقول الدكتور شوقي ضيف<sup>(1)</sup> "... نبع الشعر العربي من منابع غنائية موسيقية، وقد بقيت فيه مظاهر الغناء والموسيقى واضحة، ولعل القافية أهم تلك المظاهر، فإنها واضحة الصلة

---

<sup>(1)</sup> الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 47.

بضربات المغنيين، وإيقاعات الراقصين، إنها بقية العزف،  
وإنها لتعيد للأذن؛ تصفيق الأيدي، وقرع الطبول.

ثم يستشهد ببيت حسان بن ثابت:

**تغن بالشعر إما كنت قائله**

**إن الغناء لهذا الشعر مضممار**

فرسالة الشعر العربي عند - جب - رسالة تصويرية تعتمد  
أكبر ما تعتمد على التشبيهات المتلاحقة المتتابعة، حتى  
كأنما القصيدة بردة يمانية بما فيها من زخرف النقوش  
والألوان.

وعند - شوقي ضيف - رسالته غنائية، تركز على  
القافية الوثيقة الصلة بضربات المغنيين، وإيقاعات الراقصين،  
وتصفيق الأيدي وقرع الطبول.

ويقول ابن قدامة: "إن المبالغة هي طابع الشعر العربي،  
حتى لقد اصطاح على أن أعذب الشعر أكذبه..".

ويقول ابن رشيق:

"...وكانت القبيلة من العرب، إذا نبغ فيهم شاعر أتت  
القبائل فهنأتها وصنعت الأطمعة؛ واجتمع النساء يلعبن  
بالمزاهر، وينقرن بالدفوف، كما يصنعون في الأعراس،

ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبح عن  
أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم".  
وما يقوله ابن رشيح صورة مكررة من تعريفات القدامى  
للشعر والشاعر.

فقد كان الشعر عند العرب منذ ترنم الحداة بأهازيجهم  
خلف القوافل في بطون الصحراء أو فوق قمم الجبال، مرآة  
لحياة الفرد، وما يتلون به أفق حياته، من صلوات بالأمراء  
والملوك، مدحاً أو هجاء، تهنئة أو رثاء، وصدى لمفاخر قبيلته  
في صراعها الدائم مع جيرتها وأندادها.

وكان إحساس الشاعر، بالمعاني الإنسانية، والمثل العليا،  
والمشاهد الطبيعية، لا يتطلع إلى أكثر من خاطرة أو سانحة  
يرسلها الشاعر، كالمثل السائر، أو الحكمة البليغة، أو  
الصورة المنمقة الجميلة.

ولم تتغير أهداف الشاعر ولا رسالة الشعر، رغم تفوق  
الحضارة الإسلامية العالمية، واتساع آفاقها، وتعدد صورها  
ومناهجها، وتعاقب وثباتها وتطوراتها. فقد احتفظ الشعر  
العربي في إصرار وفي عناد، بل في تقديس وإجلال، بطابع  
الانفرادية، وروح القبيلة.

وقامت حركات تحرير وانطلاق في الشعر العربي قادها عمالقة كبار، كبشار، والمعري والنواصي، والمتبي، ولكنها حركات لم ترتفع بأهدافها عن التلوين والزخرف، وبراعة التشبيه والمقابلة.

وظل الشعر العربي، في أزهى عصور الحضارة العربية، بعيداً عن التعبير عن عواطف الجماهير، وآمال الشعوب، لاصقاً في ذلة وضراعة بأبواب الخلفاء والإقطاعيين؛ يدق طبول المديح العالية المدوية، ويطلق فنه وإلهامه وشاعريته بخوراً خانعاً مستجدياً تحت مواطئ أقدامهم، ومواقع أبصارهم.

ثم جاء القرن التاسع عشر، فوجدت محاولات انطلاقية في أفق الشعر العربي، ووضعت بذور، نمت وأشرقت وأتت أكلها ناضجة مثمرة في مطلع القرن العشرين. حيث انبثق التيار الصاعد، ودوت الأفاق بنبوءات عالية لها مناهج، ولها أهداف، ولها صلوات وثيقة بركب الأفكار العالمية.

وابتدأ عرش الاستعارات والتشبيهات؛ والكنايات والمجازات وهي التي يسميها الشبابي - بالخيال الصناعي - يتزلزل ويتهاوى.

وأخذ الرواد العباقرة، يدفعون بأيديهم الجبارة، أنوار الفجر الجديد فجر البعث للشعر العربي ليلحق بالركب

العالمي، وليسهم في حضارة بني الإنسان بالقدر الذي يتكافأ مع وثبة الأمة العربية ومكانتها من أمجاد الفكر والفن. وثب الشبابي بالأدب العربي من حدوده الضيقة وآفاقه المحدودة، ومنهجه التقليدي إلى عالم إنساني رفيع، ودنيا مشرقة بالجمال والنور، وحياة فيها توهج ويقظة وانفعالية صادقة، وحرية طليقة مؤمنة بنفسها ويقومها وبرسالتها.

يقول الشبابي:

"...لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور. نقرؤه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا، وخطرات أرواحنا، وهجسات أمانينا وأحلامنا. لقد أصبحنا نتطلب أدباً قوياً عميقاً يوافق مشاربنا، ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة، بما فيها من شوق وأمل، وهذا ما لا نجده في الأدب العربي القديم ولا نظفر به لأنه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون. لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة،

أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنصار  
القبور الساخرة<sup>(1)</sup>.

والشعراء عند الشبابي هم:

"أولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة أرحب  
وأسمى من سماء البيئة المحدودة، متغزلين بدنيا غريبة رائعة،  
لم تخلقها الحياة إلا في أعماق قلوبهم المألى ببهاء الكون ومثل  
الحياة العليا..."

وهم أيضاً:

"...أولئك الموهوبون الذين يسبقون عصورهم فيغنون أشهى  
أغاني الجمال وأعذب أناشيد القلب البشري لأجيال لم تخلق  
بعد، وهم أولئك الذين لا يصورون عادات العصر المتغيرة  
المتحولة بل عادات الحياة الخالدة على الدهر، ولا يصفون  
أحاديث الوعاظ والمتكلمين والفلاسفة، بل أحاديث نفس  
الإنسان التائهة في بيداء الزمان، ولا يعلنون أسرار القصور  
والمجالس، بل أسرار الأزل والأبد<sup>(2)</sup>."

---

(1) الخيال الشعري عند العرب. للشابي ص 100.

(2) مجلة العالم الأدبي التونسية. السنة الرابعة عدد 2 ص 15.



والشاعر لن يؤدي رسالته، في نظر الشابي، إلا إذا كان شعره: "من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ويجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما كانت تحس، وتدرک من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرک، وينسيك وجودك الإنساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك"<sup>(1)</sup>.

...كان الشعر لدى الشابي رسالة وحياة، رسالة لها قداستها ونبلها وسموقها الشامخ، وحياة تمتزج بصور الوجود الكونية والنفسية والإنسانية، ثم تتنفس بالجمال والعطر، والحب والحرية.

كان الشعر عنده هو التعبير الصادق عن ذات نفسه، وعن الانعكاسات والظلال التي تتدفق على وجدانه، من حياة شعبه، وإلهامات عقيدته.

ومن هنا، كان هذا التيار الحي الذي يتدفق في شعره، رقراقاً دافئاً، فيبعث إشراقة الحياة، وضجيج القوة، في كل ما يحيط به أو يلامسه.

---

<sup>(1)</sup> كفاح الشابي لكرو ص 29.

وهذه العاطفة الحارة الحلوة المشعة، التي تجري في كلماته، وتسبح في أنغامه، فتتهفو إليها القلوب، وتسكن إليها الأرواح في نشوة ذاهلة، فاتقة ملهمة.

وهذا العمق الواعي المبصر، الذي يتحسس أعماق النفس الإنسانية في أحلامها وصبواتها وهواتفها، ويعيش معها ويتذوقها، ثم يرسلها لحناً خالداً، نحس حيالها بأن أرواحنا وقلوبنا، هي التي تتطرق وتغني.

ويصور لنا الشابي رسالة الشعر الحي الذي يقود قافلة الوجود، الشعر المتدفق من نبع الخلود، الشعر الذي أخطأه شعراء عصره: "إن في هؤلاء الشعراء من يعرف كيف يجبل الطين، ولكن ليس فيهم من يعرف كيف ينفخ فيه الحياة.

وكيف تريد من شعرائنا أن يكونوا غير ذلك، وهم إنما يعيشون على هامش الحياة، ولا يخوضون أحشاءها؟ ويستوحون صفحات الكتب، ولا يستوحون هذا الوجود؟ ويصغون إلى هذر الشعب، ولا يصغون إلى أصوات قلبه الكثيرة، ويتغنون برغبات المجتمع الزائلة، ولا يتغنون بمطامح الإنسانية الخالدة.

الحقيقة أنهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فنهم، والاندماج فيه بكل ما لهم من روح وحس وتفكير وخيال،

حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره. وما برحوا ينظرون إليه كناظرة من نوافل النفس، لا ضرورة من ضروراتها، ولهو ساذج يتسلى به المرء في سآمة الوحدة، وملل الفراغ، لا جد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة، ومن ثم كانوا لا يمنحونه ما يجب له من التقدير والاحترام، ولا يتخرجون أن يسفوا به إلى صغائر الأشياء وسخفاتها.

وهكذا يصرفون أيامهم ولياليهم في كهوف ضيقة، وأودية عميقة مظلمة يسمونها مساكن آبائهم الأولين، وإن ارتفعوا فإنما ليخاطبوا الشعب بذلك "الشعر الاجتماعي" على طريقة وعاظ المنابر أو أساليب كتاب الصحف.

ويا ليتهم يعلمون أن للشعب روحاً كأرواح الأطفال، وأقداماً كأقدام الجبابرة، وأن أنشودة تغني فتنة الدنيا وجمال الوجود، لأجدي على روحه وأعود عليه من ذلك الوعظ الفاتر، والتعاليم الجامدة، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن، وحرارة الحياة، التي - أي الأشعار - ملؤوا بها سمعه، وأثقلوا بها قلبه المسكين.

أما ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة التي تبصر ما لا يبصره الناس، وتشعر بأسمى مما يشعرون،

وعنصر من معنى الألوهية التي تخلق من المادة الصماء حياة ساحرة وفلكاً دائراً. أما ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه ونسمة من حياته، فإذا هي حية ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وفن وجمال، وتتغنى بما يزخر في أعشار القلب البشري من عطف وبغض، ويأس وحنين، ولذة وألم، وغايات ومثل... أما ذلك الجبار، الذي يرتفع بقلبه فوق البشر، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وبهاء الوجود، فإنني فتشت عنه فما وجدته، ولو وجد لظل غريباً مغموراً مجهولاً من الناس<sup>(1)</sup>.

الشاعر هو ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه، ونسمة من حياته، فإذا هي حية ناطقة، تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وفن وجمال، وتتغنى بما يزخر في أعماق القلب البشري من عطف وبغض ويأس وحنين وغايات ومثل.

---

<sup>(1)</sup> أبو القاسم الشابي من مقال بمجلة "العالم الأدبي" عنوانه: الشعر والشاعر.

ذلك هو الشاعر الذي يسمو برسالة الشعر عن أن يكون  
بوقاً من أبواق الرثاء والمديح الرخيص المأجور، أو شريطاً من  
الأشرطة التي تصلح لكل ما يفرض عليها من تسجيل!!!

ذلك هو الشاعر الصانع المبدع الذي يتناول قيثارته، ليلون  
الحياة والطبيعة، والقلب الإنساني، والعاطفة البشرية، بألوانه  
وفنونه، ثم يرسلها صوراً مثالية معبرة صادقة، فيها لمسات من  
الجمال والعطر والإلهام، تضيف إلى الثروة الفنية الإنسانية  
العالمية غذاء ونوراً ومتاعاً.

والشابي في كل هاتيك المعاني يكاد يكون نسج وحده  
بين شعراء العربية، فأنت تحس بروحه تخفق وتهتز في ألحانه،  
وتلمس الصدق في تعبيره الإنساني الشامل وتشهد في صورته  
عمق تجاوبه مع الألوان والظلال والجمال، ووضوح الطاقة  
الشعرية الخلاقة التي هي الجوهر الأول لأية شاعرية متفوقة،  
وتحرره الكامل من قيود التقليد والتكلف، والصور المكررة.  
يصطاف الشاعر في عين دراهم من الشمال التونسي.  
حيث الغابات والجبال والرعاة، فيصور لنا تلك الحياة في إطار  
من الفتنة والسحر والصدق واللمسة الإنسانية الفنية قل أن  
يسامقه مثيل في الشعر العربي:

أقبلَ الصبحُ يُغني للحياة الناعسة  
والريى تحلم في ظلّ الغصون المائسة  
والصبا تُرقص أوراق الزهور اليبسة  
وتهادى النورُ في تلك الفجاج الدامسة

\* \* \*

أقبلَ الصبحُ جميلاً، يملأ الأفق بهاه  
فتمطى الزهر، والطيرُ وأمواج المياه  
قد أفاقَ العالم الحي، وغنى للحياه  
فأفريقي يا خرايفي، وهلمّي يا شياه  
واتبعيني يا شياهي، بين أسراب الطيور  
واملئني الوادي نُغاءً، ومراحاً وحبور  
واسمعي همس السواقي، وانشقي عطرَ الزهور  
وانظري الوادي، يغشيه الضباب المستير

\* \* \*

واقطفي من كالأرض، ومرعاها الجديد  
واسمعي شباباتي تشد، بمعسول النشيد  
نغم يصعد من قلبي كأنفاس الورود  
ثم يسمو طائراً، كالبلبل الشادي السعيد

\* \* \*

وإذا جئنا إلى الغاب، وغطانا الشجر  
فاقطفي ما شئت من عشب، وزهرٍ وثمر  
أرضعه الشمس بالضوء وغذاء القمر  
وارتوى من قطرات الطل، في وقت السحر

\* \* \*

وأمرحي ما شئت في الوديان، أو فوق التلال  
واربضي في ظلها الوارف، إن خفت الكلال  
وامضغي الأعشاب، والأفكار في صمت الظلال  
واسمعي الريح تفني، في شماليخ الجبال

\* \* \*

إن في الغاب أزهير، وأعشاباً عذاب  
ينشدُ النحلُ حواليها، أهازيجاً طرابُ  
لم تُدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب  
لا، ولا طاف بها الثعلبُ في بعض الصحابُ

\* \* \*

وشذاً حلواً، وسحراً، وسلاماً وظلالُ  
ونسيماً ساحرَ الخطوةِ، موفور الدلالُ  
وغصوناً يرقصُ النور عليها، والجمالُ  
واخضراراً أبدياً، ليس تمحوه الليالُ

\* \* \*

لن تملي، يا خرايفي، في حمى الغاب الظليلُ  
فزمانُ الغاب طفلُ، لالعِب، عذبُ جميلُ  
وزمانُ الناس شيخُ، عابس الوجه، ثقيلُ  
يتمشى في ملالٍ، فوق هاتيك السهولُ

\* \* \*



لك في الغابات مرعاك، ومسعاك الجميل  
ولي الإنشاد، والعزف إلى وقت الأصيل  
فإذا طالت ظلال الكلا، الفضة الضئيل  
فهلمي نرجع المسعى إلى الحي النيبيل

\* \* \*

ذلك هو الشعر الحي، النابع من وجدان حي، يحس صور  
الكون ويصور جماله وإلهامه، ويضفي عليه من روحه تلك  
الشعلة المضيئة، التي هي سر الخلود، وسر الشاعرية.

يقول الدكتور شوقي ضيف<sup>(1)</sup>.. "يختلف الشعراء في  
إحساسهم بالكون أو بأنفسهم أو بما حولهم اختلافاً مبعثه  
العمق والحدة في الإدراك والنفوذ إلى بواطنهم أو بواطن ما  
يصورونه. فهم ليسوا جميعاً سواء في الإحساس، بل منهم من  
هو سطحي الإحساس، لا يكاد يلمس ما يصفه إلا لمساً  
خفيفاً، وهو لذلك لا يؤثر فيك إلا تأثيراً من الظاهر إن صح  
هذا التعبير، فشعره فاتر لا حرارة فيه. ومن الممكن أن نودع  
في هذا القسم مجموعة النظامين الذين لا يفعلون أي انفعال

---

<sup>(1)</sup> دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 48، 49.

قَبْلَ الأشياءِ، وإنما هم يسجلونها في شعرهم، كأن شعرهم  
صحف حسابية لأعداد وأرقام.

وفي الشعراء من يتعمق، ما يدركه ويحسه من ذات  
نفس، أو ما يبصره ويشاهده في الكون من حوله، تعمقاً يصل  
إلى باطنه وخفايا داخله، فنقرأ شعره ونحس كأننا في حلم  
سحري، ونشعر بشيء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة  
الحقيقية لأن الشاعر ينفس عما في داخلنا بما يجري على  
لسانه من أبياته، أو قل من مشاعره وإحساسه. فنحن عنده  
نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكمال  
ونقص، فالعالم ليس كمالاً خالصاً ولا نقصاً خالصاً، بل هو  
مزيج منهما، مزيج ينتظر الشاعر الذي يحسه إحساساً حاداً  
ويعرضه.

وبين هذين الفريقين من أصحاب الإحساس السطحي  
الحداد يقع كثير من الشعراء في مدارج وسطى. وليس من شك  
في أنه بمقدار ما يكون الشاعر من مادة الإحساس تكون  
موهبتة في الشعر، كما يكون تأثيره في سامعيه وقرائه. وهل  
ضعف الشعر العربي في أواخر عصوره الوسطى إلا لضعف هذه  
المادة عند شعرائه فأصبحوا كالبغاوات، يصيحون بكلام  
مكرر معاد قلما فهموه أو أحسوه، وقد أخذوا ينقلونه من هنا

إلى هناك دون أي تعديل أو تحريف يدخل في شعرهم شيئاً من روح أو حياة.

وبذلك أصبح الشعر أشبه ما يكون بضرب من التطبيق على الشعر الموروث، فالشاعر يؤلف القصيدة على نموذج قصيدة سابقة، ولا يضيف إلا ألواناً باهتة من البلاغة المحفوظة، ولا يفكر أي تفكير في حق نفسه عليه، وأن الشعر ينبغي أن يعبر عن هذه النفس من وجه أو وجوه، ومن هنا كان شعرهم شيئاً غثاً، وكان يشبه أكبر الشبه بركة راكدة طفحت بالأعشاب الضارة.

وأبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي هصر غصنه القدر ولما يبلغ الخامسة والعشرين. هذا الشاعر يعد فلتة من فلتات عصرنا الحديث في حدة الإحساس وعمقه، ودقته..".

كان الشابي بحق، فلتة من الفلتات العبقرية في الشعر العربي، التي تأتي إلى الحياة حينما يراد إحداث تطور وبعث، في أمة من الأمم، أو فن من الفنون.

فلتة، انبثقت كالعاصفة، والتمعت كالنجوم. ثم احترقت سراعاً كالشهب، بعد أن أضاءت سموات الشعر العربي بنور لا يزال شعاعه ينيّر الطريق الصاعد، لشعرنا العربي.

كانت رسالة الشابي. هي الخروج بالأدب العربي، من نطاقه الإقليمي، إلى الأفق العالمي.

وكان سبيله إلى ذلك تحريره من قيوده القديمة، وأغراضه المادية، تحريره من التكلف والافتعال والفردية، والصعود به إلى المعاني الإنسانية ليكون أداة للتعبير عن الضمير، والنفس، والجمال، والخير، والصدق، عن آمال الشعوب وأحلامها، وحققها في الحرية والعزة والقوة والحياة الكريمة الأبية.

ليكون اللحن المدوي، والتهافت العالي، الذي يحارب الطغيان والجمود والاستغلال والاستعمار، وكل قيد غليظ يلقيه الشيطان في طريق بني الإنسان.

وبذلك المنهج وعلى ضوءه وهداه، شق الشابي للشعر العربي، طريقاً نحو أدب جديد، ورسالة مضيئة سامقة، تتصل بالحياة، وتعيش في أعماقها، وتحس بالآلام مجتمعتها، وتعبر عن كفاحه وتوثبه، ونبضات قلبه، ورعشات روحه، وانفعالات حسه.

وأضاف إلى الشعر العربي، المعاني الحية المتوهجة، والجرس الموسيقي الفني في أجمل أنغامه وصوره.

والانطلاقية المشرقة المتحررة القادرة على رسم الألوان  
والظلال، التي تعطي معانٍ فوق المعاني الناطقة في الظل واللون.  
ولم أجد شاعراً من عمالقة الشعر أثر في مجرى الشعر  
العربي الحديث كما أثر الشابي.

فمدرسة أبولو في مصر، تطورت منهاجها، واتسعت  
آفاقها، وتعددت ألوانها متأثرة بالشابي، منفعة بفتوحاته  
ووثباته، وروائع ابتكاراته.

ومدارس العراق ولبنان والشام في لهوات شعرائها  
المحدثين، جرس الشابي، وبريق ألفاظه، وخطو أقدامه،  
ومجالات إلهامه.

ومن شاء فليراجع قصائد: ناجي، ومحمود حسن  
إسماعيل، وعلي محمود طه، ليرى أصداء شعر الشابي.

ونقدم للتمثيل لا للحصر هذا النموذج. وهو قصيدة  
الشابي "الصباح الجديد" وهي شبه مكررة في لهوات هؤلاء  
الشعراء.

أسكتي يا جراحُ واسكتي يا شجون  
ماتَ عهد النواخِ وزمانُ الجنونِ  
وأطل الصباخُ من وراء القرون

\* \* \*

في فجاج الردى قد دفنت الألم  
ونشرت الدموع لرياح العدم  
واتخذت الحياه معزفاً للنعيم  
أنغنى عليه في رحاب الزمن

\* \* \*

وأذبت الأسى في جمال الوجود  
ودجوت الفؤاد واحنةً للنشيد  
والضيا والضلال والشذى والورود  
والهوى والشباب والمنسى والحنان

\* \* \*

اسكتي يا جراح واسكتي يا شجون  
مات عهد النواخ وزمان الجنون  
وأطل الصباح من وراء القرون

\* \* \*

في فؤادي الرحيبُ معبداً للجمالِ  
شيدته الحياهُ بالرؤى، والخيالِ  
فتلوت الصلاةُ في خشوع الظلالِ..  
وحرقتُ البخور... وأضأت الشموع...  
إن سحر الحياهُ خالد لا يزولُ  
فعلام الشكاهُ من ظلام يحول  
ثم يأتي الصباح وتمر الفصول..؟  
سوف يأتي ربيعُ إن تقضي ربيع

\* \* \*

اسكتي يا جراح واسكتي يا شجون  
مات عهد النواخ وزمان الجنون  
وأطل الصباحُ من وراء القرون

\* \* \*

من وراء الظلام وهدير المياه  
قد دعاني الصباح وربيح الحياه

ياله من دعاء هز قلبي صده  
لم يعد لي بقاء فوق هذي البقاع

\* \* \*

الوداع الوداع يا جبال الهموم  
يا ضباب الأسى يا فجأج الجحيم  
قد جرى زورقي في الخضم العظيم...  
ونشرت القلاع... فالوداع الوداع



## شاعر الحرية



## شاعر البعث العربي

لم يهب شاعر في الشرق العربي حياته لتقديس الحرية،  
والهتاف بها، والتضحية في سبيلها، والتغني بجلالها كما  
وهب الشبابي وصنع.

فقد عاش طوال حياته، داعياً، ورائداً، وقائداً، للطليعة  
المجاهدة، يلهبها بألحانه، ويثيرها بأنغامه، ويوقظ أمجادها،  
ويحرك مشاعرها، وينفث فيها من سحره ولهبه، ويلقي إليها  
ما في قلبه من أعاصير هوج غضوب تائرة على القيود والأغلال.

أين يا شعب قلبك الخافقُ الحسا

سُ؟ أين الطمـوح، والأحلامُ؟

أين يا شعبُ، روحك الشاعر الفنـ

ان؟ أين الخيال والإلهامُ؟

أين يا شعبُ، فنك الساحرُ، الخ  
— لاقَ أين الرسومُ والأنغامُ؟  
إن يمَّ الحياة يدوي حواليكَ  
فأين المغامر المقدم  
أين عزم الحياة لا شيء إلا المـ  
وت، والصمت، والأسى، والظلام  
عمرُ ميت، وقلب خواء،  
ودمٌ لا تـــــــثيره الآلام  
وحياة، تنامُ في ظلمة الوا  
دي وتتمو من فوقها الأوهام  
أي عيش هذا، وأي حياة؟  
(رب عيش أخف منه الحمام)

\* \* \*

قد مشتُ حولك الفصول وخننتُ  
كَ فلم تبتهج، ولم تترنم  
ودوتُ فوقك العواصف والأنسـ  
— واءُ حتى أوشكت أن تتحطم

وأطافت بك الوحوش وناشت —  
ك فلم تضطرب ولم تتألم  
يا إلهي! أما تحسُّ؟ أما تشدو؟  
أما تشتكي؟ أما تتكلم؟  
مَلَّ نَهْرُ الزَّمَانِ أَيَامَكَ المَوْتَى  
وَأَنْقَاضَ عُمْرِكَ المَتَهْدَمِ  
أَنْتِ لَا مَيِّتَ فِيبَآسَى، وَلَا حَيٌّ  
فِيْمَشِي، بَلْ كَائِنٌ، لَيْسَ يُفْهَمُ  
أَبْدًا يَرْمِقُ الفِرَاعَ بِطَرْفِ  
جَامِدٍ، لَا يَرَى العَوَالِمَ مَظْلَمِ  
أَيُّ سَحْرٍ دِهَاكَ! هَلْ أَنْتِ مَسْحُورَ  
شَقِيٍّ؟ أَوْ مَارِدٌ، يَتَهَكَّمُ

\* \* \*

وتنضج الثورة العارمة في نفس الشابي، ويستبطن وثبة الشعب، ودمدمة العاصفة، فيلهبه بسياطه، ويلذعه بكلمات من بروق ولهب. ويسخر في أسى مرير من شيخوخته الواهنة

التي استطابت واستلانت أن تعيش في صور الماضي وأخيلته،  
لتنسى الحاضر وقسوته:

آه! بل أنت في الشعوب عجوز،  
فيلسوف، محطّم في إهابه  
مات شوق الشباب في قلبه النذا  
وي، وعزم الحياة في أعصابه  
فمضى ينشد السلام..، بعيداً...  
في "قبور الزمان" خلف هضابه  
وهناك.. اصطفى البقاء مع الأمم  
وات، في "قبر أمسه" غير آبه...  
وارتضى القبر مسكناً، تتلاشى  
فيه أيام عُمره المتشابهة  
وتناسى الحياة، والزمن الدا  
وي وما كان من قديم رغبة  
فالزم القبر... فهو بيت شبيه  
بك في صمت قلبه، وخرابه

وأعبد "الأمس" وأذكر صور الما  
ضي فدنيا العجوزِ ذكرى شبابهُ...  
\* \* \*

ويواصل الشابي، هذا النفس العالي العريض، من الشعر  
الحي الدافق الملتهب، فيعرض على أمته صور الجمال والحياة  
التي تتواكب حوله، والتي يمتلئ بها إهاب كل شيء في  
الوجود... سواء!!!؟

وإذا مرت الحياةُ حوالياً  
كـَ جميلاً، كالزهر غضا صباها  
تتغنى الحياة بالشوق وبالعز  
م فيُحيي قلب الجماد غناها  
والربيع الجميل يرقص فوق الـ  
ورد، والعشب، منشداً تياها  
ومشى الناس خلفها، يتملؤ  
نَ جمالَ الوجود في مرآها  
فاحذر السحر! أيها الناسك القديـ  
س، إن الحياة يُغوي بهاها

والربيع الفنان شاعرها المفتـ  
ونُ يغري بحبها وهوها  
وتَمَلّ الجمال في رسم المو  
تى..! بعيداً عن سحرها وصداها  
وتغزل بسحر أيامك الأو  
لى وخلّ الحياة تخطو خطاها  
وتتلاحق الصور الجميلة، في مواكب الجلال والنور،  
وهي سمة الشابي وطابعه وفنه، الصور الجميلة التي تتطوي  
على طعنات نافذات، يحركها الشابي ويعمق جراحها في روح  
شعبه المستكين الخامل، لينهض وينتفض كما تنهض  
وتنتفض كل خلية حية، في الكون الحي المنتفض:  
وإذا هبت الطيور مع الفجـ  
ر، تفني بين المروج الجميلة  
وثُحي الحياة، والعالم الحيّ،  
بصوتِ المحبة المعسولة  
والفراش الجميل رفرفاً في الرو  
ض، يناجي زهوره المطلولة



وأفـاق الـوجود للـعمل المـجـى  
سـدي ولـلسـعي، والمـعـاني الجـليـلـة  
ومـشـى النـاس في الشـعـاب، وفي الغـا  
ب وفـوق المسـالك المـجهولـة  
يـنـشـدون الجـمـال، والنـور، والأفـ  
سـراج والمـجـد، والحـيـاة النـيـلـة  
فأغـضـض الطـرف في الظلام! وحاذر  
فـتـنة النـور..! فهـي رؤـيا مـهولـة..  
وصـباح الحـيـاة لا يـوقـظ المـو  
تـى ولا يـرحـم الجـفـون الكـليـلـة

\* \* \*

ثم يـنتـقل الشـابـي إلى عمق فلسفي، يربط فيه ما بين  
الإنسان والكون، الكون الحي، النابض بالقوة والحركة،  
الكون الذي لا يعبأ إلا بالحركة المتطورة النشيطة، ويلعن في  
احتقار، الخمود والجمود، لأنهما من الصور القبيحة التي لا  
تليق بجلال الحياة وجمالها، ولا تتسق مع إشراقها وتفريدها:

كل شيء يُعاطف العالم الحيّ،  
ويُذكي حياته ويفيده  
والذي لا يجاوب الكون بالإحس  
سأس عبء على الوجود وجوده  
كل شيء يساير الزمنَ الما  
شي بعزم، حتى التراب، ودوده  
كل شيء — إلاك — حيّ عطوف  
يؤنس الكون شوقه ونشيدَه  
فماذا تعيش في الكون يا صا  
ح! وما فيك من جنى يسفده  
لست يا شيخ للحياة بأهل  
أنت داءٌ يببدها وتبيده  
أنت قفرٌ جهنمي لعين،  
مظلم، قاحل، مريعُ جموده  
لا تُرف الحياةُ فيه، فلا طيب  
— ريفني، ولا سحابٌ يجوده

\* \* \*

أنت قلب لا شوق فيه ولا عز  
مَ وهذا داء الحياة الدوي  
أنت دنيا، يُظلمها أفقُ الماء  
ضي وليل الكآبة الأبدية  
مات فيها الزمان والكون إلا  
أمسها الغابر، القديم، القصي  
والشقي الشقي في الأرض قلب  
يومه ميت، وماضيه حي

\* \* \*

ولقد ارتفع الشابي بشعر الوطنية والحرية، إلى ذروة من  
الإبداع الفني، غدت محجة ومنازة، وشعلة ملتهبة مضيئة تنير  
للأحرار المكافحين في كل مكان من أنحاء الكوكب  
الأرضي سييلهم وهدفهم.

ولم يخفق قلب الوطنية العربية يوماً لشاعر، كما خفق  
للشابي، وهو يطلق في سماء الخلود، معلقته المدوية، التي  
غدت أنشودة الأحرار، وتميمة المجاهدين، وأصبح لحنها  
المشتعل صيحة النضال. في لهوات الأحرار.

إنها إرادة الحياة. الكلمة التي شق بها الشاعر منهجه في  
الحياة. وجعلها الكلمة الفاصلة بين برزخي الفناء والبقاء:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة  
فلا بد أن يستجيب القدرُ  
ولا بد لليل أن ينجلي  
ولا بد للقيد أن ينكسر  
ومن لم يعانقه شوق الحياة  
تبخر في جوهها وأنثثر  
كذلك قالت لي الكائنات  
وحادثني روحها المستتر

\* \* \*

ودمدممة الريح بين الفجاج  
وفوق الجبال وتحته الشجر  
"إذا ما طمحت إلى غاية  
ركبت المنى ونسيت الحذر"  
"ولم أتجنب وعمورَ الشعاب  
ولا كبة الذهب المستعر

ومن لا يحب صعود الجبال  
يعش أبداً الدهر بين الحفر  
فجئت بقلبي دمء الشباب  
وضجت بصدري رياح آخر...  
وأطرقت أصغى لقصف الرعود  
وعزف الرياح، ووقع المطر  
وقالت لي الأرض — لما تساءل  
ت يا أم هل تكرهين البشر؟  
أبارك في الناس أهل الطموح  
ومن يستلذ ركوب الخطر  
وألعن من لا يماشي الزمان  
ويقنع بالعيش عيش الحجر  
هو الكون حيُّ يحب الحياة  
ويحتقر الميتَ مهما كُبر  
فلا الأفق يحضن ميت الطيور  
ولا النحل يلثم ميت الزهر

ولولا أمومة قلبي الرؤوم  
لما ضمت الميت تلك الحفر  
\* \* \*  
وفي ليلة من ليالي الخريـ  
ف مثقلة بالأسى والضجر  
سكرت بها من ضياء النجوم  
وغنيت للنهر حتى سكر  
سألت الدجى: هل تعيد الحياة  
— لمن أذبلته — ربيع العمر؟  
فلم يتكلم فؤاد الظلام  
ولم تترنم عذارى السحر  
وقال لي الغاب في رقعة  
محببة مثل خفق الوتر  
يجيء الشتاء شتاء الضباب  
شتاء الثلوج، شتاء المطر  
فينطفئ السحر، سحر الفصون  
وسحر الزهور، وسحر الثمر

وسحر السماء، الشجى، الوديع  
وسحر المروج، الشهى، العطر  
وتهوى الفصون، وأوراقها  
وأزهار عهد حبيب نضر  
ويبنى الجميع، كحلم بديع،  
تألق في مهجة واندر  
وتبقى البذور، التي حملت  
ذخيرة عمر جميل غبر  
وذكرى فصول، ورؤيا حياة  
وأشباح دنيا، تلاشت زمر  
معانقة وهي تحت الضباب،  
وتحت الثلوج، وتحت المدر  
لطيف الحياة الذي لا يمل  
وقلب الربيع الشذي الخضر

\* \* \*

تلك هي إرادة الحياة. الإرادة المنتصرة التي لا تفتنى.  
يغشاها الشتاء والضباب والثلوج، وتعصف بها الرياح، ويظمرها  
السيول، وتبدها تهاويل الوجود. وفجأة تنبثق من تحت الضباب  
والثلوج تلك القوة النامية الساحرة، كما ينبثق فجر الربيع،  
الضاحك، من قلب الشتاء الحالك.

تلك هي إرادة الحياة، سر الكون وآيته ومعجزته، وهي  
أيضاً سر الإنسان وآيته ومعجزته، الإنسان المتحرك المتوثب  
المناضل، الذي لا يهن ولا يضعف ولا يستسلم أبداً، بل كلما  
هاجمته الحياة وقست عليه أحداثها، وغلظت وطأتها،  
وخشنت مخالبتها، انتفض ووثب للقتال، وتفجرت طاقاته،  
وتجلت مواهبه، وشمخت عزائمه، فإذا كل شيء يلبي  
ويخضع، ويستجيب ويلين، وإذا بكل شيء حوله، هو الفجر  
الضاحك، والأمل الباسم.

إن اليقظة الحية التي تشتعل في القلوب شوقاً وأملاً  
وعملاً، هي الذخيرة الحية، التي تتزود بها الشعوب لمعارك  
الحياة، وهي الضربة المنتصرة في ساحات الكفاح والنضال،  
بيننا وبين قوى الشر والاستعباد.

ويواصل الشابي لحنه العالي:



وما هو إلا كخفق الجناح  
حتى نما شوقها وانتصر  
فصدعت الأرض من فوقها  
وأبصرت الكون عذب الصور  
وجاء الربيع بأنغامه  
وأحلامه وصباه العطر  
وقبلها قبلاً في الشفاء،  
تعيد الشباب الذي قد غبر  
وقال لها: قد منحت الحياة  
وخلدت في نسلك المدخر  
وباركك النور فاستقبلي  
شباب الحياة وخصب العمر  
ومن تعبد النور أحلامه  
بياركه النور أنى ظهر  
إليك الفضاء، إليك الضياء،  
إليك الثرى، الحالم، المزدهر

إليك الجمال الذي لا يبيد!  
إليك الوجود، الرقيب النضر

\* \* \*

ورفرف روح، غريب الجمال،  
بأجنحة من ضياء القمر  
ورن نشيد الحياة المقدس  
في هيكل، حالم، قد سحر  
وأعلن في الكون: أن الطموح

لهيب الحياة، وروح الظفر

\* \* \*

إذا طمحت للحياة النفوس  
فلا بد أن يستجيب القدر!

كان الشابي، يهدف أول ما يهدف إلى أن يشعل في قلب  
شعبه إرادة الحياة، ومشية النصر، وعقيدة القوة، والتمرد  
على الحياة الذليلة الخائفة التافهة التي أعدتها له، ونسجت  
خيوطها، وزخرفت أعلامها، أنامل الاستعمار وأعوان  
الاستعمار.

وكان الشبابي يؤمن إيماناً قدسياً بأن كل شيء في الوجود، يمكن أن يتبدل، وأن يتحول، إذا شئنا التبدل والتحول.

فإرادة الفرد، هي التي تصوغ وجوده، وتكيف حياته، وتصنع غده، وإرادة الشعوب، هي ناموس الحياة الأكبر، فإذا أرادت شيئاً، فقد أرادته الحياة، أو بمعنى أدق وأشمل، أراده الله.

كانت رسالة الشبابي، أن يصعد بروح الشعب إلى آفاق النور والأمل، وسموات الإيمان، والثقة بنفسه وبغده، وبالمدخرات الهائلة الكامنة في أعماقه.

كان يتطلع إلى اللحظة الحاسمة، التي تدوي فيها أرض تونس وآفاقها بالثورة الجامحة، التي تعصف وتزمر وتدمر، الثورة التي ينبثق من قلبها الحي المشتعل الفجر المقدس، فجر العزة والحرية.

وكان الشبابي الشاعر الثائر المندفع، تذهب نفسه حشرات على هذا الشعب الذي أعجزت القيود ساقيه، فحالت بينه وبين الخطو السريع إلى التمرد والثوب، فكان يثور ويتمزق قلبه، وتصرخ ألعانته، إنه ليود من أعماقه، أن يتحول إلى قوة عارمة من قوى الطبيعة، تدمر البغي وتعصف

بالطغيان، وتتقدح ناراً ونوراً، في القلوب والأرواح حتى يلتهب  
كل شيء ويتحرك، وينفعل بالحياة، وبإرادة الحياة:

أيها الشعب! ليتني كنتُ خطاباً

فأهوى على الجذوع بفأسي!

ليتني كنتُ كالسيول، إذا سالت

تهدُ القبورَ رمسا برمسي!

ليتني كنت كالرياح، فأطوي

كل ما يخلق الزهور بنحسي!

ليتني كنت كالشتاء، أغشى

كل ما أذبل الخريف بقرسي!

ليت لي قوة العواصف، يا شعبي

فألقي إليك ثورة نفسي!

ليت لي قوة الأعاصير، إن ضـ

ـجتُ فادعوك للحياة بنبسي!

\* \* \*

فإذا ألقى الشابي بتلك الغضبة الجامحة في ألحانه، وتلك  
الأمانى المشتعلة في أنغامه، عاد إلى شعبه منذراً ومحذراً، فهو  
قد ألف القيد، ولا يألف القيود إلا الأموات:

لا ينهض الشعبُ إلا حين يدفعه

عزمُ الحياة، إذا ما استيقظتُ فيه

والحب يخرق الغبراءَ مندفعاً

إلى السماء، إذا هبَّت تناديه

والقيد بألفه الأمواتُ، ما لبثوا

أما الحياةُ فيبليها وتبليها

\* \* \*

ثم يتعالى النذير في لحن الشابي، فالشعب الذي تراق  
دماؤه، ولا يثار للدم المراق، والحق المغتصب، والكرامة  
المهدرة، يترصده الزوال والفناء:

كل قلبٍ حمل الخسف، وما

ملُّ من ذلِّ الحياة الأردلِ

كلُّ شعبٍ قد طغت فيه الدما

دون أن يثار للحق الجلي

خله للموت يطويه!.. فما  
حظه غير الفناء الأنكل

\* \* \*

ويعود الشبابي إلى فلسفته الخالدة، وعقيدته المقدسة،  
فالحياة نشاط مستمر، وصراع دائم، ينتصر فيه القوي  
الواثب، ويذل الضعيف الخامل:

إن الحياة صراعٌ فيها الضعيف يـداسُ  
ما فاز في ماضيها إلا شديد المراس

\* \* \*

"والياس موت ذليل حقير، والأمل حياة وروح وبقاء،  
وسعادة" هي سعادة الأقوياء.

"والياس موت ولكن موت يثير الشقاء"  
والجد للشعب روح توحى إليه الهناء  
فإن تولت تصدت حياته للبيلاء

\* \* \*

إن ناموس الحياة الأبدى، قد أودع في عزمات البشر،  
قوات مسخرة، تخرّ لها شوامخ الجبال، فإذا فقدنا عزيمتنا،  
شق لنا هذا الناموس، لحدنا وقبرنا:

ضعف العزيمة لحدّ، في سكينته  
تقضي الحياة بُناة اليأس والوجل  
وفي العزيمة قِـوَاتُ، مسخرة  
يخرّ دون مداها الشامخُ الجبلُ  
"والناس شخصان: ذا يسعى به قدمُ  
من القنوط، وذا يسعى به الأملُ"  
هذا إلى الموت، والأجداثُ ساخرة  
وذا إلى المجد، والدنيا له خول

\* \* \*

ثم يلتفت الشبابي إلى الطغاة السفاحين، الذين أذلوا  
الشعوب، واسترقوا البشر، وحملوا رسالة الشيطان، فساداً  
وظلماً، وخسّة ونذالة، منذراً يوماً غضوباً عبوساً دامياً، يوم  
تستيقظ الشعوب، وتتحرك الجماهير وتدنو ساعة العقاب،  
وهي آتية لا ريب فيها:

يا أيها السادر في غيِّه!  
يا واقفاً فوق حطام الجباه  
مهلاً! فني أنات من دستهم  
صوتٌ رهيبٌ سوف يدوي صداه...

\* \* \*

يا أيها الجبار! لا تزدري  
فالحق جبارٌ، طويل الأناه  
يُغفي، وفي أجفانه يقطُّه  
ترنو إلى الفجر الذي لا تراه

\* \* \*

ألا أيها الظالم المستبدُ  
حبيبُ الظلام، عدو الحياة  
سخرتَ بأنات شعب ضعيف  
وَكفك مخضويةً من دماه



وعشت تشوه سحر الوجود  
وتبذر شوك الأسى في رياه

\* \* \*

رويدك! لا يخذعك الريح  
وصحوُ الفضاء، وضوء الصباح  
ففي الأفق الرحب هؤلُ الظلام  
وقصفُ الرعود، وعصف الرياح  
حذار! فتحت الرماد اللهبُ  
ومن يبذر الشوك يجن الجراح

\* \* \*

تأمل هنالك... أنقى حصدتَ  
رؤوسَ الورى، وزهور الأمل  
ورويتَ بالدم قلب التراب  
وأشربته الدمع حتى ثمل  
سيجرفك السيلُ، سيل الدماء  
ويأكلك العاصفُ المشتعل

\* \* \*

ألا أيها الظالم المسعُرُ خدُهُ  
رويدك إن الدهر يبني ويهدمُ!  
أغرك أن الشعب مغضٍ على قذى  
لك الويل من يوم به الشر قشعَمُ  
سيئار للعزِّ المحطم تاجُهُ  
رجال، إذا جاش الردى فهموهمُ!  
رجال يرون النذل عاراً وسبَةً  
ولا يرهبون الموت، والموتُ مقدم  
وهل تعتلي إلا نفوس أبيية  
تصدع أغلال الهوان وتقصم  
ألا إن أحلام البلاد دفينَةٌ  
تجمجمُ في أعماقها ما تجمجم  
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها  
وينبثق اليوم الذي يترتمُ!  
هو الحق يبقى راكداً فإذا طغى  
بأعماقه السخطُ العصوفُ يدمدمُ!

وينحط كالصخر الأصم إذا هوى  
على هام أصنام العتوّ، فيحطم  
إذا صعق الجبار تحت قيوده  
سيعلم أوجاع الحياة ويفهم!!

\* \* \*

هذا التفاضل اليقظ المشرق الحي، هو الذي حارب به  
الشابي، روح اليأس والخمول والهمود في تونس.  
وهذا الأمل الباسم الشامخ، هو الذي أطلقه الشابي،  
بخوراً وعطراً ونوراً في سموات وطنه، ليمسح عن أعين الناس،  
ليل الكآبة، وظلمات العبودية، وهموم الهوان.  
وبهذا الأمل، وبهذا التفاضل، وبهذه القوة المدوية الوثابة،  
وبهذه الإرادة المتعالية المنتصرة، قاوم الشابي الطغاة والعتاة،  
وصارع التحلل والضعف والتخاذل، ونازل الاستعمار وعبيده  
وسدنته وعيونه.  
وكانت ألحان الشابي المشتعلة بالإيمان، المتوهجة  
بالأمل، المججلة بالقوة تهز أعماق تونس، ثم تتطلق مجنحة  
مشرقة، لتدوي في آفاق الأمة العربية كافة، منذرة مبشرة،  
وملهمة ودافعة وواعية.

كانت ثورة الشباب، ثورة الرجل الحر القوي المناضل،  
المؤمن بالحياة ورسالة الحياة، وحق الكائنات في الحرية  
والنور.

ولم تكن ثورة الرجل المريض المفلول، كما يصوره لنا  
الدكتور شوقي ضيف. في قوله:

"...<sup>(1)</sup> ولم يقف إحساس الشباب الدقيق بالألم عند نفسه،  
بل تعداها إلى أمته إذ وجدها ترزح تحت كابوس الاستعمار  
الفرنسي وتستشعر منه ألماً مريراً، وهو ألم ينبعث من قلبها  
وصميمها، كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه، فقد أذلها  
الفرنسيون وحولوا حياتها إلى جحيم لا يطاق.

وكان الشعب التونسي في مجموعته كائنات، لم  
يستيقظ منه إلا الأقلون عدداً، ثاروا لأمتهم وثار معهم الشباب  
ثورة تغلغت في أعماقه، إذ تصادف أنه كان معلولاً، فأحس  
إحساساً دقيقاً بعله أمته وبالمرض السياسي الذي يطحنها -  
طحن الرحي - تحت أنيابه. إنه الاستعمار البشع الغاشم الذي  
ألقى بكلاكله على صدر أمته، وإنها لتذوق منه ومن ظلمه  
وبطشه الأمرين، فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة كريمة

---

<sup>(1)</sup> دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص57.

فينهال عليها ضرباً وطعنأً، حتى تخر مهیضة، وهي تن أنین  
الشكلی، ويهب الشابى فی وجه المستعمر فیلطمه، بشعره...".  
لقد عاش الشابى طوال حیاته، تحركه انفعالات القوة،  
وتبعته أضواء الأمل، عاش محارباً للیأس والضعف والألم  
الذلیل القاتل:

یا قلب! لا تقنع بشوك الیأس من بین الزهور  
فوراء أوجاع الحیاة عذوبة الأمل الجسور  
یا قلب لا تسكب دموعك بالفضاء فتقدم  
فعلى ابتسامات الفضاء قساوة المتهمك

\* \* \*

عاش الشابى مؤمناً بوطنه، وعظمة شعبه، وعبقریة  
أمته، عاش على الإیمان بأن هذا الشعب لا ینقصه إلا القائد،  
المعبر عن أمانیه.

یقول الشابى:

"...<sup>(1)</sup> إن فی أعماق هذا الشعب التونسى، ثروة روحیة وفناً  
قویاً، ولكنها ثروة مهملة، وفن غیر مصقول، وإن فی طبیعة

---

<sup>(1)</sup> الشعر والشاعر عندنا. للشابى. بمجلة العالم الأدبى.

هاته البلاد سحراً يلهم الصخر أسمى المعاني، وأرفع الأفكار، لو كانت للصخر مشاعر حية واعية. وإن الداء كل الداء في الألسنة المعبرة، لا في روح الشعب، ولا في طبيعة البلاد....".

ولكي نلمس عظمة الكفاح الميرير الشامخ، الذي حمل الشبابي ألويته، في سبيل الحرية، وفي سبيل أمته، وفي سبيل حياة أفضل وأسمى للعالم العربي، يجب أن نلقي نظرة على الحياة التي كان يحيها الشعب التونسي، تحت أنقال التقاليد البالية المظلمة، وتحت سياط من جبروت الاحتلال وسطوته وغطرسته.

"...<sup>(1)</sup> كان الشعب التونسي في ذلك الحين - أي بين سني 28 - 34 - مستسلماً لتقاليد متعفنة تحجب عنه النور والحياة، وكل إحساس بالكرامة المهانة والحال الذليل، وكان ثمة رجال رجعيون فرضوا أنفسهم على الشعب وعلى قيادته وتوجيهه باسم الدين، أي باسم الله، فحرموا على الناس استخدام عقولهم، وحرموا على الشعب السير في قافلة الإنسانية، قافلة التقدم والحضارة وجعلوه يعتقد أن بؤسه

---

<sup>(1)</sup> كفاح الشبابي لكرو، ص 63.

وظلامه وجهله ومذلتة إنما هي نعمة من الله، لأنه لو شاء  
لغيرها ولو أراد لما قدرها، وكل شيء بقضاء الله وقدره،  
وثواب الله في الآخرة، إنما هو لمن أذعن لهذا القضاء والقدر،  
أما عذاب جهنم فهو لكل من خالف هذه المشيئة وثار على  
واقعه المريض الذي زعموا أنه من صنع الله.

وطبيعي أن هذا الإرهاب المفروض باسم الله، والتهديد  
الدائم بلعنته الأبدية، وعقابه الشديد في الآخرة، إنما يهيئ  
جواً صالحاً للكبت والحرمان بأنواعهما الكثيرة، ويمهد  
السييل للاستعمار، لكي يبقى ويستمر، ويقف أيضاً في وجه  
كل محاولة للإصلاح والنهوض، ويجعل الشعب فريسة بأيدي  
المستعمرين ومن يسير في ركابهم من انتهازيين ومارقين، أو  
متكلمين باسم الدين.

وفي مثل هذه البيئة الخانعة المريضة، يصعب جداً أن يفهم  
الناس شاعراً كالشابي...".

ولهذا عاش الشابي حياة قاسية مريرة، عانى فيها  
الحرمان والفقر والاضطهاد، ورماه الناس - شأن المصلحين -  
بنظرات الغضب والجحود، وسلقوه بألسنة حداد شداد،  
وحاربوه في رزقه، وفي شعره وفي أحلامه.

واعتصم الشبابي بقيثارته، يبيها آلامه وأحزانه، ويريق  
عليها جمرات ملتهبات، من أضواء قلبه الكبير، الرحب  
الآفاق الذي يتسع ويتسع حتى لحساده وشائئيه!!

كلما قام في البلاد خطيب  
يوقظ شعبه يريد صلاحه  
أخمدوا صوته الإلهي بالعسد  
فأماتوا صداحه ونواحه  
ألبسوا روحه قميص اضطهاد  
فاتك، شائك يرد جماحه  
وتوخوا طرائق العسف والإر  
هاق معه وما توخوا السماحه  
هكذا المصلحون في كل صوب  
رشقات الردى إليهم متاحه

\* \* \*



ويتحدث الشابى عن النبى المجهول!!  
فى صباح الحىاة ضمخت أكوابى  
وأترعتها بخمرة نفسى...  
ثم قدمتها إىلك، فأهرقت  
رحىقى، ودست یا شعب كأسى!  
فتأملت.. ثم أسكت آلامى،  
وكفكفت من شعورى وحسى  
ثم نضدتُ من أزامىر قلبى  
باقاة، لم ىمسها أى إنسى...  
ثم قدمتها إىلك، فمزقت  
ورودى، ودســــــــــــــــتها أى دوس  
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً  
وبشوك الجبال توجت رأسى

\* \* \*

ثم يخاطب الناس ويحدثهم عن المثل الأعلى.. الذي  
يقدمونه..وما قدسوه إلا لأنه وهم وسراب لا يتراءى في عيونهم  
ظله وشبحه:

ما قدسَ المثلَ الأعلى وجمله  
في أعين الناس إلا أنه حلم  
ولو مشى فيهم حياً لحطمه  
قوم، وقالوا بخبث: "إنه صنم"  
لا يعبد الناس إلا كلُّ منعدمٍ  
ممنوع، ولمن حاباهم العدم  
حتى العباقرة الأفذاذ، حبهم  
يلقى الشقاء، وتلقى مجدها الرمم

\* \* \*

الناس لا ينصفون الحي بينهم  
حتى إذا ما توارى عنهم ندموا  
الويل للناس من أهوائهم! أبداً  
يمشي الزمان وريح الشر تحتدم

\* \* \*

لقد لاقى الشابي من قومه، ما لاقى العباقره الهداة من قبله، ولكن الجذوة المقدسة، التي يودعها الله، قلوب المختارين من عباده، لحمل الأمانة إلى شعوبهم، تزكو دائماً، وتتوهج أبداً، وتنبثق من تحت الرماد، ومن خلف الجبال، ومن وراء الثلوج والضباب، محطمة للقيود والسدود، مرتفعة فوق الاضطهاد والجحود، لتؤدي زكاتها ورسالتها.

يا شعب قد خلقت فيك شرارة  
ستشرب يوماً نارها بضرام

\* \* \*

ولقد شبت شرارة الشابي وتضخمت وتأججت ناراً  
محرقة، أودت بالاستعمار والطغيان، وبرز الشعب التونسي  
الحر إلى جبين الحياة وساحات البقاء.  
وأعز ما يتمنى الهداة.. أن تزكو رسالاتهم، وأن تظفر  
مبادئهم، وأن يصبح هتافهم، هو لحن الحياة المنتصر.



## عبقرية الشابي



## الشعراء والإلهام

الشعر في أسمى وثباته وفتوحاته، تجربة نفسية ذاتية،  
تتعرض ظلالها، وتتجلى ألوانها، في الإطار البياني، فإذا بها  
دنيا من الصور، ومن المعاني.

تجربة على نسق التجارب الصوفية التي تقدم للإنسانية  
دائماً زاهياً الحي، من المثاليات والإشراقات، وكأسها  
الصافي، من الأحاسيس والانفعالات.

وللشعر جلوة وخلوة علوية، يرى فيها الشاعر بعيني خياله  
ووجدانه، ما لا يراه الناس.

وللشاعر إلهامه، الذي ينبثق في أعماقه، إلهامه الذي  
يضيف على ألحانه، تلك الروحية الآخاذة، وتلك النشوة الرائعة  
الفاقتة، التي عبر عنها القدامى بالسحر. وإن من البيان لسحراً.

وهذا الإلهام، هو صانع الشعراء، وطالما حدثنا رواية  
عامود الشعر القديم، عن وادي عبقور الذي يموج بالهواتف،  
وعن سكانه من الجن، الذين يوحون إلى شعراء الإنس،  
زخرف القول، ومرقصات اللحن!!

ولك أن تسميه إلهاماً غدقاً، يهبط من أعلى، ولك أن  
تصوره مقترناً بعزيف الجن وهمسهم ونفثهم في القلوب  
والصدور!؟

ومن حقاك أن تعبر عنه بالعقل الباطني العملاق، أو  
بالطاقة الخلاقة، التي تبعد الصور، وتفتن في الألوان، وترسم  
بريشة الفن خوالد الآثار.

سواء كان هذا أو ذاك، فالشعر إلهام. وعلى قدر هذا  
الإلهام، يكون الشاعر، ويكون الشعر.

ومن هنا، جل الشعر وارتفع عن أن يكون تكلفاً أو  
صناعة أو علماً تحدد المناهج، وتقيد القواعد.

ويصور لنا الأستاذ زين العابدين السنوسي، صديق  
الشابي ورفيق طفولته، حالة الإلهام التي كان يعيش فيها  
الشابي فيقول:

إذا رجعنا إلى أدبائنا المعاصرين عرفنا أن المرحوم أبا  
القاسم الشابي، لم يكن يستنزل الشعر، ولكنه كان



يفيض عليه مهاجمة تمنعه الراحة والنوم، فيصوغ القصيدة بيتاً بيتاً، ويتهجد كل واحدة بمفردها، في ليله وظلامه الدامس، ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ما جاش بضميره، شعراً محكماً، ثم ينام مطمئناً، كأنما نزع عن صدره عبئاً، حتى إذا استيقظ في الغد متأخراً وجدها على طرف لسانه، ونسخها عن ذاكرته مطمئناً، وربما طاش عنه الشطر فلا يرضى أن يعوضه أبداً، وتبقى القصيدة بتراء في جيبه، يقرؤها علينا بتراء لا يجسر على ترقيعها أبداً، إلا أن يتذكرها، ولو بعد أشهر فيتمها وينسخها في كناشه".

ولقد حدثني الصديق الروحي للشابي. الدكتور عبد العزيز عتيق: أن قصائد الشابي، كانت تأتي إليه إلهاماً، لا تأتيه كفكرة، وإنما تأتي كاملة بأوزانها وأنغامها، وتأتي معها أيضاً الموسيقى الخاصة بها، أي أن القصيد كان يفرض عليه وزنه وموسيقاه.

ويقول الدكتور عتيق: إن الشابي كتب إليه خلال الحوار الذي كان يدور بينهما دائماً حول الشعر والشعراء، فعبّر عن يقينه بأن لكل فنان رسالة، ولكل شاعر وحيماً مقدرًا محدوداً.

وأنه - أي الشابي - كان ينقل إلى أوراقه، ما يراه بمعنى خياله، فأحياناً يأتي الوحي، رؤياً واضحة، وأحياناً يعتري الصور ضباب، حتى أنه كان ينظر ويدقق، وبطيل النظر ليتمكن من قراءة ما يوحي إليه؟!

يقول الشابي. في رسائله للدكتور عتيق - وهي كنز من كنوز الأدب يجب أن ينشر -: ".فأنا أنقل المقدر لي. أحياناً أنقله من اللوحة الخيالية السماوية التي أمامي كأنني أنقل من كراسة، وأحياناً أنقل مما يشبه الضباب؟!

فديواني مكتوب في الأزل، وأنا أنقله من الغيب، فإذا كانت عين خيالي حادة ولا ضباب يحجبها. نقلت ما هو مسطور دون عناء...".

ويستطرد الدكتور عتيق متحدثاً عن الشابي فيقول:  
"... كان يقول الشعر دائماً في حالة غيبوبة كاملة، وكانت المعاني تهبط إليه كشحنة تائفة، وكانت رسالته أن يبادر إلى تفريغها وإبرازها...".

ويرى الشابي أيضاً: أن الشعر له ملهم. هو الروح الخالد، الذي يتردد في طبقات الإنسانية كلها، فيجل في كل جيل منه بمقدار.

وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه، أو يتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها، وهذا هو السر في أن العمل الفني الخالد، شيء يرضي الإنسانية كافة.

وإذن فالشابي يعتقد أنه من حملة الرسائل الفنية، وأن وحيه يأتي إليه من أعلى، من عوالم الروح والنور، ويرى أن حملة المشاعر الفكرية والفنية، جميعاً من أولى الأجنحة الفضية، الذي توحى إليهم فنونهم، وتهبط عليهم أفكارهم وصورهم.

وهو لحن من القول، رددته من قبل لهوات طائفة من رجال الفلسفة والفن والفكر.

يقول الشاعر "موسيه" عن نفسه: أنا لا أعمل، ولكني أسمع فأفعل، فكأن إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني؛ ويقول "لامارتين": لست أنا الذي يفكر، ولكن هي أفكار التي تفكر لي:

ويحدثنا شيخ الفلاسفة "سقراط" أنه كان يسمع بأذنيه ما تلقيه إليه الروح: ويروي لنا الشاعر "رينيه": أنه كان يستيقظ من النوم فيجد قطعة الشعر تامة:

وكل هذا عندي، إنما هو تعبير براق ملون من الفطرة والطبع، وهما مادة الفنان الأولى.

هو تصوير لامتزاج روح الفنان بالطبيعة، والتقاءه بروح الحياة وينابيعها التي تنفجر في القلوب والعقول التي أعدت إعداداً خاصاً للإلهام والتلقي.

والإلهام يأتي دائماً كفاء المواهب والاستعداد. فالعبقرية الفنية إذن، طاقة إلهامية عليا، تمتزج بطاقة مستعدة مهيئة لرسالتها، فيتكون منها معاً، ذلك السحر العبقري، في النغم واللحن والفكرة.

## شاعر الطبيعة

ولقد كان إلهام الشبابي دافقاً غدقاً، ينبثق في أعماقه  
قوياً مبيناً، ويتراءى له في خياله مشرقاً مضيئاً، أشبه ما  
يكون "بالتلفزيون" أو "بالسينما" الملونة.

وكان في قلبه استجابة لما يرى، وفي روحه طواعية لما  
يشاهد، وفي حسه تفتح واستشراق للموسيقى العلوية التي  
تلازمه وتلاحقه.

ومن ثم تكوّن للشبابي عالمه السحري الخاص به، عالمه  
السحري الذي أضفى ألوانه وظلاله على مشاهد الطبيعة،  
فغدت مرآئها في عدسته إشراقات من النور، ونبغات من  
الفن، ولوحات من الجمال القدسي.

يقول الشابي:

"... كنت أقف أمام الزهرة، فكأنني أقف أمام عالم من الجمال والخيال والإلهام، أمام شيء مقدس يوحي بالبراءة وبالعطر وبالجمال"<sup>(1)</sup>.

كان الشابي عميق الحس بما يحيط به، وكان دائم التدقيق، دائم الهيام والجري وراء صور الكون ومفاته.

كانت الطبيعة ملهمته ونجواه، وسره وديناه، والصدر الحنون الذي يلجأ إليه، ويلوذ به كلما قست عليه الحياة.

"... كانت الطبيعة عين الشابي التي ترى، وأذنه التي تسمع، وقلبه الذي يخفق بالحب والحنان فإذا تكلم الشابي أو كتب، وإذا فكر أو صور، وإذا نظم أو نثر، وإذا وصف الحب أو الحياة، المرأة أو الطفل، الأم أو الحبيب، الوطن أو الشعب، الأعداء أو الفساد، كان للطبيعة أثرها في كل ذلك، وليس من قصيدة، ولا من موضوع صغير أو كبير تحدث عنه الشابي أو صور إحساسه ورأيه فيه، إلا وكانت صورته، لوحات ملونة من مشاهد الطبيعة الرائعة، من سماء وماء، وشجر وطيور، وغاب وصحراء، وجبال وبحار. على

---

<sup>(1)</sup> من رسائل الشابي للدكتور عتيق.

قلبه الشاعر اليقظ تعيش الكائنات جميعاً، بل العالم  
بأسره"<sup>(1)</sup>:

كل ما هبّ ودبّ، وما  
نام، أو حام على هذا الوجود  
من طيورٍ، وزهورٍ، وشذى  
وينابيع، وأغصان تمير  
وبحارٍ، وكهوفٍ، ودُرى  
وباركين، ووديانٍ، وبيد  
وضياءٍ، وظلالٍ، ودجى،  
وفصولٍ، وغيومٍ، ورعود  
وثلوجٍ، وضبابٍ عابرٍ،  
وأعاصيرٍ، وأمطارٍ تجود  
وتعاليمٍ، وديـنٍ، ورؤى،  
وأحاسيسٍ، وصمتٍ، ونشيد

---

<sup>(1)</sup> كفاح الشبابي لكرو، ص85.

كأهنا تحيا بقلبي، حُرَّةً  
غضة السحر، كأطفال الخلود  
\* \* \*  
هاهنا، في قلبي الرحبي، العميق  
يرقص الموت وأطياف الوجود  
هاهنا، تعصف أهوال الدجى  
هاهنا، تخفق أحلام الورود  
هاهنا، تهتف أصداء الفنا  
هاهنا، تعزف ألحان الخلود  
هاهنا، تمشي الأمانى، والهوى،  
والأسى، في موكب فخم النشيد  
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي  
هاهنا الليل الذي ليس يبيد  
هاهنا، ألف خضم، ثائر  
خالد الثورة، مجهول الحدود  
هاهنا، في كل أن تمحّي  
صوّر الدنيا، وتبدو من جديد



ذلك القلب الشاعر الذي يموج بصور الوجود، وتتواهب فيه  
أطراف الكائنات، ويتسع للبحار والجبال، والسهول  
والوديان، والطيور والزهور، وكل أفقه فيه نغم أو حياة.

كان الشابي، يرى أن سويعاته الهنيئة الحلوة الفاتنة، هي  
التي يقضيها بين أحضان الطبيعة، حيث يخفق قلب الحياة،  
خفقاته الخالدات الملهمات.

هناك حيث يجد نفسه حراً طليقاً مغرداً بين تيجان الزهر،  
وأعشاش الطير، وابتسامات الغدير، وسحر شاطئه المنير.

هناك يجد نفسه، ويجد حياته، ويجد الأفق المفقود  
الحافل بالموسيقى والمزامير والألحان، والرؤى الفاتنة  
الساحرة، يقول في قصيدته الجنة الضائعة:

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير  
وطهارة الموج الجميل، وسحر شاطئه المنير  
ووداعة العصفور، بين جداول الماء النمير  
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور  
وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهور  
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور  
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور

مستوفةً بالورد، والأعشاب، والورق النضير  
نبني، فتهدمها الرياح، فلا نضحج، ولا نثور  
ونعود نضحك للمروج، وللزنابق والغدير  
ونخاطب الأصدقاء، وهي ترف في الوادي المنير  
ونعيد أغنية السواقي، وهي تلغو بالخير  
ونظل نركض خلف أسراب الفراش المستطير  
ونمر ما بين المروج الخضر، في سكر الشعور  
نشدو ونرقص — كالبابل — للحياة وللعبور  
ونظل ننثر للفضاء الرحب، والنهر الكبير  
ما في فؤادينا من الأحلام، أو حلو الغرور  
ونشيدُ في الأفق المخضب من أمانينا قصور  
أزهى من الشفق الجميل، ورونق المرح الخضير  
وأجل من هذا الوجود، وكل أمجاد الدهور

\* \* \*

أبدأ، تدلنا الحياة بكل أنواع السرور  
وتبث فينا من مراح الكون ما يُغوي الوقور  
فنسير، ننشد لهوانا المعبود — في كل الأمور

ونظّل نعبث بالجليل من الوجود، وبالحقير:  
بالسائل الأعمى، وبالمعتوه، والشاخ الكبير  
بالقطعة البيضاء، بالشاة الوديعه، بالحمير  
بالعشب، بالفن المنور، بالسنابل، بالسفير  
بالرمل، بالصخر المحطم، بالجداول، بالفدير  
واللهو، والعبث البيريء، الحلو، مطمحننا الأخير

\* \* \*

أيام كنا لب هذا الكون، والباقي قشور  
أيام تفرش سبلنا الدنيا بأوراق الزهور  
وتمر أيام الحياة بنا، كأسراب الطيور  
بيضاء لاعبة، مفردة مجنحة بنور  
وترفرف الأفراح فوق رؤوسنا أنى نسير

\* \* \*

تمشي على قلبي الحياة، ويزحف الكون الكبير

\* \* \*

ويصل الشابي إلى القمة العليا، إلى مجده المتألئ  
الباهر، إلى لحنه العطر المنير الساحر، صلوات في هيكل  
الحب، حيث يمزج في ألوان من الفتنة، بين الحب، والربيع،  
والطبيعة، في نشيد عبقري سماوي، لم تعرف العربية له مثيلاً.  
ولقد حدثني الدكتور الشاعر عبد العزيز عتيق، أن تلك  
القصيدة حينما أرسلها الشابي إلى مجلة أبوللو، كان  
الدكتور أبو شادي ينشدها وهو يرقص طرباً، ويهتز حبوراً،  
هاتفاً: هذا هو الشعر الذي نشدناه ونشده من قبلنا، فضلوا  
الطريق وضللنا، حتى ظفر به الشابي وحده من دوننا:

عذبة أنتِ كالطفولة، كالأحلام

كاللحن، كالصباح الجديد

كالسماض الضحك كالليلة القمراء

كالورد، كابتسام الوليد

يا لها من وداعةٍ وجمال

وشباب مـنـمـ أمـود!

يا لها من طهارة، تبعث التقديـ

سَ في مهجة الشقي العنيد!...

يا لها رقة تكاد يرفأ الور  
د منها في الصخرة الجلمود!  
أي شيء تراك! هل أنت "فينيس"  
تهادت بين الورى من جديد  
لتعيد الشباب والفرح المعسول للعالم التعيس العميد!  
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر  
ض ليحيي روح السلام العهيد!  
أنت... ما أنت؟ أنت رسم جميل  
عبقري من فن هذا الوجود  
فيك ما فيه من غموض وعمق  
وجمال مقدس معبود  
أنت.. ما أنت أنت فجر من الـ  
بحر تجلى لقلبي المعمود  
فأراه الحياة في موفق الحسن  
وجلأى له خفايا الخلود

\* \* \*

أنتِ روح الريح، تختال في الدنيا فتتهتز رائعات الورد  
وتهب الحياة سكرى من العطر، ويدوي الوجود بالتغريد  
كلما أبصرتك عيناى تمشين  
بخطو موقع كالأشيد  
خفق القلب للحياة، ورف الزهـ  
ر في حقل عمري المجرود  
وانتشت روحي الكئيبة بالحب  
وغنت كالبلبل الغريد

\* \* \*

أنت أنشودة الأناشيد، غناك  
إله الغناء، رب القصيد  
فيك شب الشباب، وشحه السحر،  
وشدو الهوى وعطر الورد  
وتهادت في أفق روحك أوزان  
الأغاني، ورقة التغريد

فتمايلت في الوجود كل حين  
عقبيري الخيال حلو النشيد

\* \* \*

أنت..، أنت الحياة في قدسها السامي، وفي سحرها الشجي  
أنت..، أنت الحياة، في رقة الفجر وفي رونق الربيع الوليد  
أنت..، أنت الحياة كل أوان

في رواء من الشباب، جديد  
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام  
والسحر والخيال المديد

أنت فوق الخيال، والشعر، والفن  
وفوق النهي وفوق الحدود  
أنت قدسي، ومعبدي، وصباحي

وربيعي، ونشوتي، وخليودي

\* \* \*

آه يا زهرتي الجميلة لو تدرين  
ما جد في فؤادي الوحيد

في فؤادي الغريب تخلق أكوان  
من السحر ذات حسن فريد  
وشمسوس وضياء ونجوم  
تنثر النور في فضاء مديد  
وربيع كأنه حلم شاعر  
في سكرة الشباب السعيد  
ورياض لا تعرف الحلك الداجي  
ولا ثورة الخريف العتيد  
وطيور سحرية تتفاغى  
بأناشيد حلوة التفريد  
وقصور كأنها الشفق المخضب  
أو طلعة الصباح الوليد  
وغيوم رقيقة تنهدى  
كأباديد من نثار الورود  
وحياة شعرية هي عندي  
صورة من حياة أهل الخلود



## خصائص شعره

تحدث الشابى عن غربفة شعره وفضنه ، بفن أءباء عصره ،  
ورفاق حفاةه ، فقال :

"...<sup>(1)</sup> اءءمء صباء الفوم بأءففن أءرفهما ، ولا أرفء أن  
أسمفهما ، أءهما ملءء وءءاهر بالفءاءه ، وءائفهما ملءء  
فكءم الفءاءه ، إلا عن الفاءة من فلفاءءه .

وما أن اسءقر بفى المءلس ، ءءى قال لف ءائفهما فءاطبفنى :  
إن أءبك فا صءفقى فن غربب غربب ؟ لا أظنه فعفش فف ءونس ،  
فإنء فف شعرك من الشعراء الففن فءفنون بالمءهب الرمزف -  
سانبولفزم - وإنف لفلى فقفن من أن أءبك لا ففهمه فف ءونس ،

---

<sup>(1)</sup> مءلة مكارم الأخلاق ءونسفة ، السنة الأولى. العءء 11 صفءاء  
441 ، 444 .

إلا أفراد قلائل لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة على الأكثر.  
فعارضه الأديب الأول قائلاً:

أراك غلوت كثيراً في حكمك، وجاوزت حد الإنصاف،  
وما أدراك أن صديقنا لا يفهمه إلا مثل هذا العدد اليسير!  
ولأبدأ بنفسي، فإنني أفهم شعر صديقنا حق الفهم، وأدرك  
مراميه البعيدة، وأشعر حين أقرؤه بخيالات تجول في نفسي،  
وبعواطف تتحرك في قلبي، وبأفاق تنفسح أمامي وتمتد،  
ولكني رغم ذلك، ورغم إعجابي بأدب صديقنا وإكباره،  
فإنني أود لو لم يقصر مراميه على هذا اللون الوحيد من  
الأدب، وإنما خاض معترك الحياة، وعاد لنا بمثل منه وصور  
وميزات!

فأجابه الآخر قائلاً: إنني لا أزال مصراً على رأيي وأجزم  
به، إن هذا الفن الأدبي الذي يتخذ من الطبيعة رموزاً لمعاني  
النفوس جميل جداً، وغامض في سموه؛ بحيث لا تفهمه إلا  
نفوس قليلة نادرة، حتى إنني لا أفهم من فن أبي القاسم  
ومراميه، إلا قليلاً، حين تكون ليس لها من الغموض والرمز  
حظ كبير. وقصارى فيما عدا ذلك، أنني أحس بقوة غريبة  
تستحوذ علي حين أتلوها، لا أستطيع لها فهماً، فأعجب به،  
وأقول: لا بد أن وراء هذا الرنين حياة، ولا بد أن خلف هاته  
الغيوم آفاق فسيحة:

ولما انتهى صاحبي من كلمته أحسست باليأس والقنوط  
يستحوذان علي، وقلت في نفسي: كما قال يوليوس قيصر  
حين لعبت به السيوف: حتى أنت يا بروتوس؟. أجل لقد كنت  
أحسب أنه خير من فهمني وأدرك أشواق قلبي وأفراحه،  
وأصغى لألحان روجي وأغانيها، في ظلمة القصر البعيد، فإذا  
هو شر من جهل لغة نفسي، ولم يفهم منها إلا الساذج البسيط.  
وظللت صامتاً لا أتكلم، وأنا أقول في نفسي: لست واللّه غير  
طائر غريب يترنم بين قوم لا يفهمون أغاني الطيور، ولكن هل  
يحفل الطائر بالوجود حين يترنم؟ وهل يسأل الناس: أيكم  
يفهم أغاني الطيور! كلا يا قلبي كلا، سر في سبيلك يا قلبي  
ولا تحفل بصفير الأبالسة، فإن وراءك أرواحاً تتبع خطاك...".

لقد اتخذ الشابي من الطبيعة، رموزاً لمعاني النفس. إنها  
لكلمة صدق رائعة، فقد زواج الشابي في شعره بين الطبيعة  
والنفس البشرية، وأوجد في ألحانه وحدة، بين العمق النفسي،  
والجمال الطبيعي، وأضفى على الماديات ظلال المعنويات.

بل لقد حول كل ماديات الكون، إلى معان مشرقة حية  
متحركة، تحس وتألّم، وتشدو وتترنم، وتكشف الستر، عن  
المضمّرات والإلهامات التي تكمن خلف صورها وألوانها.

لم يكن الشبابي من هؤلاء الشعراء الوصافين، شعراء "ألفتو غرافيا" الذين ينقلون صور الوجود وألوانه كما هي، بل كان من الشعراء الذين يخلعون نفوسهم وألوانهم وعمقهم على المرئيات والمشاهدات، فإذا بكل شيء ملون، فاتن الألوان، ساحر الظلال، تتجاوب فيه الموسيقى والألحان.

وفي شعر الشبابي أيضاً تلك القوة الغريبة المبهمة، القوة الآخاذة الساحرة، التي تلين لها القلوب وتخشع، ونحن إليها الأرواح وتهفو، القوة الساحرة التي تطوف بنا في عوالم تموج بالزخرف والتهاويل، والضجيج والرنين، عوالم خلف عيونها السابحة، آفاق فسيحة من الأمل والنور.

ولكن هل كانت هذه وتلك، هي كل خصائص شعر الشبابي. وهل حقاً الشبابي لم يخض معترك الحياة، ولم يعد منها بمثل وصور!!!

لقد تناول نقاد الأدب حياة الشبابي وفنونه وألحانه وصور شاعريته، ثم عاد كل منهم يترنم بنغم خاص من أنغامه، ويتحدث عن زاوية من زواياه، هي وحدها عنده، الباقية الخالدة.

فالدكتور شوقي ضيف، يحدثنا عن الإحساس الحاد بالألم في شعر الشبابي ويعتبره قمته العالية، فيقول:

"...<sup>(1)</sup> ولم يجد أمامه - أي الشابى - ما يئته لواعجه، سوى ناي شعره، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية، نظمها والدموع تتهمر من عينيه وهي لذلك تعد أشجى أغانينا في العصر الحديث، لأن صاحبها بللها بدموعه وهو يكتبها، ولأنها تصور ألماً حقيقياً؛ بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس، فسقط لا على الألفاظ التي تمثل ألمه، وإنما على الأبر التي تلسع، وحمى الأبر في نيران قلبه، فأصبحت تكوي وتلدغ...".  
والدكتور محمد مندور، يبلور شخصية الشابى في أنه كان روحاً ثائرة، ومن هذه الروح استمد شعره، فيقول:

"...<sup>(2)</sup> وإذا كان إبراهيم ناجى، قد تبلور في الظمأ إلى الحب، والتغنى بلواعجه وأشواقه حتى أوشك معظم شعره أن يصبح قسيده غرام متصلة، وإن تعددت أحداثها وتنوعت أنغامها، في قوة وجمال دائمى التجدد - إذا كان هذا هو شأن الدكتور إبراهيم ناجى - فإننا نستطيع أن نبلور شخصية أبقى القاسم الشابى في أنه كان روحاً ثائرة، ومن هذه الروح

---

(1) دراسات في الشعر العربي المعاصر ص 51، 53.

(2) الشعر بعد شوقي، ج 2، ص 63.

استمد شعره الذي ربما كان أقوى هذه الجماعة<sup>(1)</sup> طاقة  
شعرية، وحدة عاطفة، وثورة روح...".

والدكتور عمر فروخ يرى في شعر الشابي، الفلسفة،  
والطبيعة، والجمال الباسم، والغزل الحلو.

\* \* \*

لقد كان الشابي عميق الحس بكل ما يحيط به، عميق  
الحس بالألم، وبالجمال، وبوطنه الجريح، وبفلسفة الكون.

وهذا العمق الحي، هو سر السحر القوي، الناطق في  
ألحانه، وشدوه، وصيحاته.

والشاعر الخالد، يأتي إلى دنيانا، ليمثل الحلقة المفقودة،  
بين عالم الصور، وعالم الحس، ليحدث التجاوب بين ما يريده  
ظاهر اللفظ، وما يثار خلف حجاب السمع.

كان قلب الشابي في كل كلمة من كلماته، وكانت  
أعصابه الثائرة تهتز وترجف في لحونه.

كان شعره هو حياته وأنفاسه وقطرات دمه، وسر الحياة  
في أعماقه:

---

<sup>(1)</sup> يقصد جماعة أبولو.

## أنت يا شعر فلذة من فؤادي

### تتغنى وقطعة من وجودي

ومن هنا جاءت صورته حية، تضج بالحركة، وبالعاطفة،  
وتتلق بالجمال والثورة، وبالحفيف الذي ينقلنا من دنيانا إلى  
عوالم موسيقية، حاملة حيناً، ومرعدة أحياناً.  
جاءت صورته، جديدة كل الجدة، غريبة عن ما نألف،  
وعما نحب ونرضى.

وهذه الغرابة المفاجأة في شعره، هي عندي التي فرقت  
نقادنا شيعاً، يتعصب كل فريق للون من ألوانه، ونعمة من  
نعماته.

كان الشبابي وتراً جديداً في الأدب العربي، واثب الأذن  
العربية بمبتكراته وتحليقاته ورنينه، فأذهلها حيناً، وأطربها  
أحياناً، وأشعرها دائماً حين تلقى إليه بذات نفسها، بخيالات  
تجول وتحوم، وبعواطف تتحرك وتتطلق، وآفاق تتسع وتتسع  
حتى ترى دنيانا، حلماً ونغماً وأملاً.  
وتلك السمة هي أسمى ما ترتفع إليه شاعرية الشعراء.

## أثر الشابي في الشعر العربي

لمع نجم الشابي في أفق الشعر العربي مع الخيوط الأول  
لفجر الثورة على عامود الشعر العربي القديم، والدعوة إلى  
تحطيم القيود والسدود التي تعوق مجراه، والتحليق به في  
الآفاق الإنسانية والعالمية، والارتضاع به عن توافه الحياة  
وصغائرها، واستخدامه كالنشرات التي تصدر للإعلان عن  
الأفراح والمآتم والمآدب.

وكانت مدرسة أبوللو في مصر، ومدرسة المهجر في  
العالم الجديد، وبجوارها هنا وهناك، في الشام والعراق  
والحجاز مدارس ثائرة، تدعو وتبشر وتعمل، للتححرر  
والانطلاق.

ويحدثنا الدكتور الشاعر إبراهيم ناجي عن الشابي  
فيقول:



"كان الشابي من مدرسة أبوللو، ولكنه انفصل عنها وسبقها، وولى وجهه شطر المهجر، ثم برزت ذاتيته الخاصة في أيامه الأخيرة، وأصبح له حدسه وهدفه، وعمقه ولحنه، ومدرسته المميزة عن مدرستي: المهجر وأبوللو."

والشابي بلا ريب، مدرسة خاصة قد تتلاقى لحونه وأهدافه وانطلاقاته، برواد أبوللو، وبشعراء المهجر، ولكن جناحه قد ارتاد آفاقاً أكثر عالمية وإنسانية منهما، وأكثر مساساً والتصاقاً بالروح العربية، والثورة الوطنية.

أصبح الشابي في قيثاره الشعر العربي، نغمة خاصة، لها رنينها وموسيقاها، ولها روحانيتها الساحرة، وهمسها العاطفي الحنون، وعاصفتها الوطنية، بمجراها وعمقها، ونغمها الملتهب المدوي.

وارتفع الشابي بشعره إلى سماوات الرسالة القدسية، فشعره هو مثله الأعلى، الشامخ المترفع، الذي لا ينبغي له أن يهبط إلى التسول والتسكع على أبواب المديح والهجاء، أو إلى التكلف والتغني، بالغزل المصطنع أو البكاء على الأطلال والدمن، التي لم يشاهدها ولم تلتق يوماً بعاطفته وهواه.

وأطلق الشابي في شعرنا العربي عطراً ونوراً، بلمساته الوجدانية والإنسانية، وبتحليقاته في عالم النفس الفسيح،

وكنه الوجود البشري، وبالتجاوب الفني بين نفسه، والزمان  
والمكان، والماضي والحاضر.

واتجه بأوزانه شطر الأوتار الحساسة، والاشتقاقات  
الموسيقية الرنانة، والعاطفة النوارنية الطاهرة، والحرية  
الكاملة الشامخة، لكل كائن حي، فالحرية هي روح  
الحياة، وآية الله ونعمته، وأمانته لدى خلقه، الذين صدروا  
منه وآمنوا به.

ودوت قيثارة الشبابي في آفاق الأمة العربية، ودوت فتجاوب  
معها في حب وإعزاز، وفي إجلال وإيمان، شعراؤنا وأدباؤنا،  
تجاوبا، ترك ظله وطابعه، على الكثرة الساحقة من تراثنا  
الفني.

يقول الأستاذ محمد بدره:

"... إن أبا القاسم قد حافظ على تراثنا اللغوي أشد  
المحافظة، وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد، وخلع  
عليه ظللاً من أشعة روحه، التي كانت تحيا بيننا، على أنه  
بين مجددي الأدب في هذا العصر، يعتبر المثل الأعلى، فلم  
يتكلف نظم قصيدة في الإلهة "إزييس" أو بنظم أخرى في  
البكاء على "الأكروبول" المتصدع؛ ولكنه كان عربي الدم  
والملامح واللسان، يشعر بأنه قطعة من قومه، لا يعني غيرهم

في كل ما يقول، وها هو ديوانه الذي خلفه بين أيدينا قد صورت فيه تونس بآمالها وآلامها كأنها ماثلة أمام مرآة صافية الأديم".

ثم يقول:

"... ألم يتبين لكم في الرجل وجه من العظمة قلما يرى في العظماء؟ بلى! والله، إنكم لترونه رائعا كالشمس. ترون في الشبابي قوة ساحقة، يصحبها حنان الشاعر، وتغطيها ابتسامته العذبة.

ولكن عزاءنا فيه، هو أنه البطل الذي تقدم الطبيعة، ووصل إلى غايته كسيل جارف يريد أن يروي الأرض المجدبة وقد رواها"<sup>(1)</sup>.

وحسب الشبابي أنه وحده بين شعراء العربية في عصرها الحديث، أنه وحده، الذي أسرعت الآداب العالمية إلى تقديره وإجلاله وترجمته.

لقد ترجمت قصائده إلى الفرنسية والإيطالية والإنجليزية، ونقل الشاعر السويدي - كارل بالوف - قصيدته

---

<sup>(1)</sup> مجلة العالم الأدبي: سنة رابعة عدد 2، ص30، 29.

"أناشيد الرعاة" إلى اللغة السويدية شعراً، ونشرها مع لمحات  
من حياة الشابي وعبقريته في مجلة - بوردبروكار تاس فور  
نفسيلان ..

## الشاعر الشهيد

وأخيراً يحدثنا الشاعر عن مأساة حياته، وعن أمانيه  
وأحلامه، وأناشيده، ونبضات قلبه السماوي الباكي:  
"أشعر الآن أنني غريب في هذا الوجود، وأنني ما أزداد  
يوماً في هذا العالم، إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعوراً  
بمعاني هاته الغربة الأليمة. غربة من يطوف بمجاهل الأرض،  
ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي ليحدث قومه عن رحلاته  
البعيدة، فلا يجد واحداً منهم يفهم من لغة نفسه شيئاً.  
غربة الشاعر الذي يستيقظ قلبه في أسفار الحياة حينما  
تضطجع قلوب البشر على أسرة النوم الناعمة، فإذا جاء  
الصباح، وحدث عن مخاوف الليل، وأهوال الظلام، وحدثهم  
في أناشيده عن خلجات النجوم، ورفرفة الأحلام الراقصة بين  
التلال، لم يجد من يفهم لغة قلبه، ولا من يفقه أغاني روحه.

الآن أدركت أنني غريب بين أبناء بلادي، وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر، فترتل أغاني، أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه، أدمغة مفكرة، سيخلقها الزمن البعيد.

لقد يئست الآن. إنني كطائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة، ولا يفقهون صورة واحدة من صور الحياة الكثيرة، التي تتدفق بها موسيقى الوجود في أناشيده، الآن أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الألهية في جحيم الحياة، فهو يبكي وينتحب بين أنصاب جامدة، لا تدرك أشواق روحه، ولا تسمع أنات قلبه الغريب.. وتلك مأساة قلبي الدامية..<sup>(1)</sup>.

لقد عاش الشبابي في المأساة التي يعيشها أصحاب الرسالات، عاش مشرداً معذباً. عاش شهيداً، ومات شهيداً:

**فأنا السعيد بأنني متحول  
عن عالم الأثام والبغضاء**

---

<sup>(1)</sup> من يوميات الشبابي. ص 56. كفاح الشبابي لكرو.

لأذوب في فجر الجمال السرمدى  
وأرتوي من منهل الأضواء  
\* \* \*

ذهب الشاعر الشهيد. إلى الأضواء الخالدة، إلى الجمال  
السرمدى. إلى حيث يلقي الشهداء، عطر السماء، ورحمة  
السماء، وذهب بعد أن وهب أمته روحه وقلبه وألحانه،  
والجذوة المضيئة الخالدة:

قبس أضواء العالمين كما تضيء لهم ذكاء  
ثم اختفى خلف الغيو ب مخلفاً ظلم المساء  
فكأنما هبة السماء قد استردتها السماء<sup>(1)</sup>  
\* \* \*

---

<sup>(1)</sup> من قصيدة للدكتور إبراهيم ناجي.

استردت السماء هبتها، ولكن بقي الضوء الهادي، يعيش  
بيننا خالداً خلود الحياة. وتلك عقبى الشهداء. وذلك أجر  
الخالدين....

23 من رجب عام 1377هـ

12 من فبراير/شباط عام 1958م

ط عبد الباقي سرور



## الفهرس

5.....	.. /
47 .....	
53 .....	
66 .....	
69 .....	
83 .....	
85 .....	
105 .....	
107 .....	
129 .....	
131 .....	
165 .....	
167 .....	
173 .....	
185 .....	
192 .....	
197 .....	



**إصدارات سلسلة  
كتاب الجيب السابقة**

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2006	.	.		1
2006	.	.		2
2006	.	.		3
2007	.	.		4
2007	.	.	...	5
2007	.	.		6
2007	.	.	-	7
2007	.	.	./ - - - - . -	8
2007			/( ) ): (	9
2007		.		10
2007		.		11

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2007		.		12
2007	.	.		13
2007	.	.		14
2008		.		15
2008		.		16
2008		.		17
2008		.	1944	18
2008		.		19
2008		.	-	20
2008		.		21
2008		.	-	22
2008		.		23
2008		.		24
2008		.		25
2009		.	-	26
2009	.	.	-	27

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2009	.	.	-	28
2009	.	.	-	29
2009		.	-	30
2009		.	-	31
2009		.	-	32
2009	.	.	-1971	33
2009	.	.	- -	34
2010		.		35
2010		.	-( )	36
2010		.	( )	37
2010		.	- -	38
2010		.	-	39
2010				40
2010		.	-	41
2010		.	. -	42
2010		.	-	43

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2010	-	-	.	44
2011	.	.	.	45
2011	.	.	) (	46
2011	.	.	004 -	47
2011	.	.	.	48
2011	.	.	.	49
2011	.	.	: -	50
2011	.	.	.	51
2011	.	.	.	52
2011	.	.	.	53
2011	.	.	.	54
2012	.	.	-	55
2012	.	.	-	56
2012	.	-	.	57
2012	.	.	) 1968 (	58

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2012			1	59
2012			2	60
2012			-	61
2012			-	62
2012				63
2012	.	.	-	64
2012				65
2012				66
2012				67
2013	.		( )	68
2013	.			69
2013		..		70
2013		..		71
2013				72
2013	.	.		73
2013		..		74
2013		.		75
2013		..		76